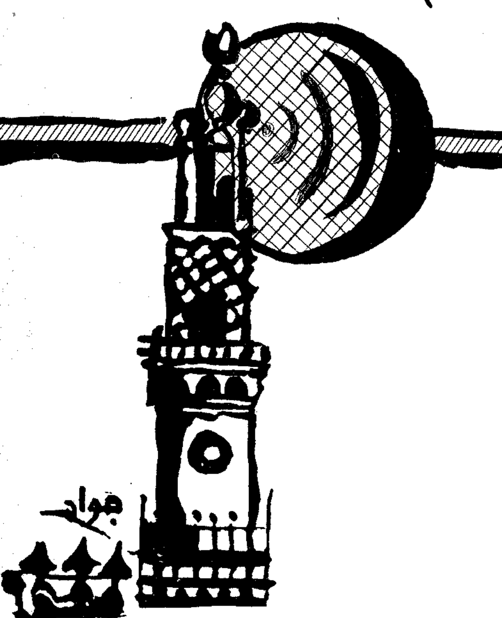
من التراث الإسلامي

رسائل من السجن

لابن تيمية

تقي الدين أحمد بن عبد الحليم

(٦٦١ - ٧٢٨هـ)



جمعها وقدم لها

محمد العبدة

من التراث الإسلامي

رسائل من السجن

لابن تيمية

تقي الدين أحمد بن عبد الحليم

(٦٦١ - ٧٢٨م)

جمعها وقدم لها

محمد العبدة

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الرابعة

١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م

دار طيبة
للنشر والتوزيع
الرياض
ص ب ٧٦١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ... أما بعد :

فإنه عندما يقل الرجال يتطلع الناس إلى الماضي ليعيشوا مع أولئك الرجال العظام الذين أدّوا خدمات جليلة للأمة بحكمتهم وعلمهم ومواقفهم الشجاعة ، لأن الناس لابد لهم من قدوة .

يقول الدكتور الكسس كاريل : « وتشعر الجماهير بالألم حين لاتجد أحداً تعجب به ، ومن حسن الحظ أن المجتمع لايتكون من الأحياء وحدهم بل من الأموات أيضاً ، فعظماء الموتى لايزالون يحيون بيننا » (١) .

---

(١) الكسس كاريل ، تأملات في سلوك الانسان ، ص ١٢٢ .

ومن الرجال الأفذاذ في التراث الاسلامي ، العالم المجاهد تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، الذي يعد أصدق رجال العالم تصويراً للعقلية الاسلامية .

ونحن عندما نرجع إلى التراث الاسلامي ، فلسنا من الذين يتقوقعون على الماضي في أحلامه دون أن يكون هذا التراث أساساً ومنطلقاً للحاضر والمستقبل .

لقد نشر الكثير من تراث شيخ الاسلام ابن تيمية ولا يزال ينشر ، ولذلك لابد من ذكر العصر الذي نشأ فيه وبعض المزايا التي تميز بها ... وأخيراً سبب إرسال هذه الرسائل التي هي موضوع هذا الكتاب[1] .

ولد ابن تيمية في العاشر من شهر ربيع الأول سنة احدى وستين وستمائة من الهجرة (١٠ ربيع الأول ٦٦١ هـ) بمدينة حرّان في اقليم الجزيرة شمالي العراق وبلاد الشام ، من أسرة ثابتة الدعائم قوية الأركان ، امتازت بقوة البيان وقوة الذاكرة .. فوالده الشيخ عبد الحليم كان عالماً محدثاً ، وجَدّه مجد الدين أبو البركات صاحب (منتقى الأخبار) . يقول عنه الحفيد : « كان جدنا عجيباً في حفظ الأحاديث وسردها وحفظ مذاهب الناس » .

ومن هذا نعلم أنه ولد في عصر يموج بالاضطراب السياسي

---

(١) وهي حتى ص ٥٢ من هذا الكتاب .

والثقافي ، فقبل مولده بخمس سنوات دمرت بغداد من قبل التتار ، ولذلك نزحت الأسرة من حرّان إلى دمشق ، ولا شك أن وحشية هؤلاء القوم أعطت هذا الطفل إحساساً بكره الظلم ، وشجاعة لقتال العدو .

وقد تميز عصره ببروز علماء في فنون شتى ، ولكن السمة الظاهرة على هذه العلوم ، هي السعة التي هي أقرب إلى الموسوعات . وسبب تميز ابن تيمية أنه لم يكتف بما درس عن شيوخه ، بل قرأ وفحص واستفاد بقلب واع ونزعة استقلالية ، فلم يقيد نفسه بشيخ معين أو مذهب معين ، بل استفاد من الكل وأتى بجديد .

وقد اطلع على كل ثقافات عصره وهضمها ، وأكثر من البحث في العقائد والردود على المخالفين لما لهذا الموضوع من أهمية في حياة المسلم في الدنيا والآخرة ، ولكن التفسير كان أحب موضوع إليه . يقول عن نفسه : « ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مئة تفسير ، ثم أسأل الله الفهم وأقول : يامعلم آدم وابراهيم علمني . وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة وأمرغ وجهي في التراب ، وأسأل الله وأقول : يا معلم إبراهيم فهمني » .

واعترف بفضله معاصروه . يقول عنه القاضي الزملكاني : « قد ألان الله له العلوم ، كما ألان لداوود الحديد » . ويقول عنه الذهبي : « أطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون وهابوا ، وجسر هو عليها » .

ومن ميزاته :

أولاً : صلته مع جماهير المسلمين ، حيث كان لهم معلماً ومرشداً ، يحل مشاكلهم ويدافع عنهم أمام الحكام ، ويثبتهم عند غارات التتار ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، خاصة وأنه لم ينشغل بتجارة أو غيرها من أمور الدنيا ، بل كان كل وقته للعلم والجهاد . وهذه الصلة القوية التي جعلت العوام في دمشق يحبونه ويجلونه ، ولذلك لم يتجرأ عليه الحاسدون،وإنما تجرؤوا عليه في مصر لأنهم لم يعرفوه المعرفة التامة ولم يعايشوه .

وعندما يتكلم في السياسة الشرعية نلحظ هذا العطف والاهتمام بمصالح المسلمين ومشاكلهم . يقول : « إن العمران أساسه العدل ، وعاقبة الظلم وخيمة . ولهذا يروى : إن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة ، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة » .

ويقول : «إن بُعْدَ المتدينين عن الولاية لظنهم أنه لا بد فيها من حب الرئاسة والمال . والذي أخذها أخذها معرضاً عن الدين ظاناً أنها منافية له ، وأن الدين في محل الرحمة . والصحيح أن تولية الأبرار خير للأمة من تولية الفجار » .

وهو مع الجماهير في مشاكلها الاقتصادية . يقول عن المحتكرين : « ولذا كان لوليِّ الأمر أن يكره الناس على بيع ما عندهم بقيمة المثل عند ضرورة الناس إليه » .

ولما قرب التتار من دمشق وأرجف الناس وبدأ البعض يفكر في الرحيل ، رفض ابن تيمية هــذه العقلية ، وطلب منهم البقاء وشجعهم • وأخــذ يقول لأمراء الجيش : « إن الله سينصرنا ، فيقولون له : قل : إن شاء الله فيقول : تحقيقاً لاتعليقاً » •

وشارك في الجهاد ضد التتار في وقعة (شقحب) ، بعد أن أصدر فتواه المشهورة أنهم كفار بسبب امتناعهم عن بعض شرائع الاسلام ولو تكلموا بالشهادتين •

ويسجن أحد العلماء •• ولما يبلغ ابن تيمية ذلك يذهب بنفسه ويخرجه من السجن ، ويثني على هــذا العالم أمام أمير دمشق • ويسمع أن رجلاً سبّ النبي ﷺ فيقوم لانكار هــذا المنكر ويقوم الناس معه • ويؤلف بسبب هــذا كتاب (الصارم المسلول على شاتم الرسول) • ومن اهتمامه بالمسلمين ، معرفته لأحوالهم في جميع أقطارهم ، والظروف التي يعيشها كل قطر ، وما هم عليه من القرب من الاسلام أو البعد عنه • يقــول في وصف المسلمين في بلاد الشام ومصر الذين يقومون بالذود عن حياض الاسلام في ذلك العصر :

« ومن يدّبّر أحوال العالم في هذا الوقت ، يعلم أن هذه الطائفة ــ التي بالشام ومصر ــ هي أقوم الطوائف بدين الاسلام علماً وعملاً وجهاداً عن شرق الأرض وغربها ، فإنهم هم الذين يقاتلون أهل الشوكة العظيمة من المشركين • والعز الذي للمسلمين بمشارق الأرض ومغاربها هو بعزهم •••

وذلك أن سكان اليمن في هذا الوقت ضعاف عاجزون عن الجهاد ، أو مضيّعون له وهم مطيعون لمن ملك هذه البلاد ، وأما سكان الحجاز فأكثرهم أو كثير منهم خارجون عن الشريعة ، وفيهم من البدع والضلال والفجور مالا يعلمه إلا الله . وأهل الإيمان والدين فيهم مستضعفون عاجزون ، فلو ذلت هذه الطائفة ــ التي بالشام ومصر ــ والعياذ بالله تعالى ، لكان المؤمنون في الحجاز من أذل الناس . وملك هؤلاء التتار المحاربون لله ولرسوله الآن مرفوض ، فلو غلبوا لفسد الحجاز بالكلية .

وأما بلاد أفريقية فأعرابها غالبون عليها وهم من شر الخلق، بل هم مستحقون للجهاد والغزو . وأما المغرب الأقصى فمع استيلاء الافرنج على أكثر بلادهم ، لا يقومون بجهادهم . ولو استولى التتار على هذه البلاد لكان أهل المغرب معهم من أذل الناس ...

فهذا مما يبين أن هذه الطائفة التي بالشام ومصر في هذا الوقت هم كتيبة الاسلام ، وعزهم عز الاسلام ، وذلهم ذل الاسلام » [1] .

نقلنا هذا النص بطوله لأهميته.. ولنلاحظ متابعة ابن تيمية للأحداث في عصره ، ومقدرته الكبيرة على تحليل الحالة النفسية والاجتماعية للناس .

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ، طبعة الرياض ، جزء ٢٨ ، ص ٥٣٢ .

ثانياً : ومع هذه الصلة بالجماهير والاهتمام بالأحداث ، فقد كان عميقاً في تفكيره ، بل وصل إلى قمة الوعي عندما أدرك أن فريقاً من المسلمين منذ أواخر القرن الثاني الهجري قد انبهر بمنطق أرسطو وفلسفة أفلاطون (كما انبهر اليوم كثيرون بالمستشرقين)،وراحوا يحاولون إلباس العقيدة الاسلامية الصافية ثوب الفلسفة ، فجاءت الصورة مشوهة ، وتحول العلم المفيد إلى جدل ومناظرات لاطائل تحتها ، لأن النظريات التي في الذهن فقط لم تستطع يوماً أن تساهم في سعادة البشرية ، بل الذي ينقذ البشرية دائماً هو نور النبوة ...

يقول ابن تيمية عن المنطق : « إن الذي وضع هذا العلم هو رجل يوناني ، وقد كانت جماهير العقلاء في الأمم المختلفة قبلهم تعرف حقائق الأشياء بدون هذه الاصطلاحات ، كما أن العلوم الرياضية والطبيعية والعلوم العملية كالأخلاق والسياسة لا تعتمد عليه ، وهذا المنطق مرتبط بلغة اليونان التي لها دلالتها الخاصة ، وهو لا يحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به البليد » .

« وعندما يقال : دليل شرعي لايقابله أن يقال دليل عقلي،بل الدليل الشرعي قد يكون سمعياً ، وقد يكون عقلياً كالأدلة التي نبه الله عليها في كتابه الكريم والدالة على توحيده وصدق رسله. وعكس الشرعي : يكون بدعي ، إذ البدعة تقابل الشرعة . » .

إنه بحق عالم لم تصبه عقدة النقص التي أصابت بعض العلماء في القديم والحديث .

ثالثاً : وأما رسائله التي جمعناها : فهي صورة أخرى عن ابن تيمية ... صورة ربما لم يعرفها كثير من الناس ... فلربما عرفوه بالخشونة في الجواب والصراحة في الحق كما ذكر عنه تلميذه الذهبي : « تعتريه حدة في البحث وصدمة للخصوم » .

أما ابن تيمية الذي يكتب لوالدته رسالة تفيض بالرقة والعطف والاحترام ، والذي يكتب لاخوانه في دمشق وتلامذته رسائل فيها الحب والنصح والتعليم ، وفيها المسامحة للذين سعوا فيه إلى السلاطين ليسجنوه و ... فانها غير معروفة عند كثير من الناس ، وبالتالي غابت صورة ابن تيمية الانسان صاحب الصدر الواسع ، والقلب العامر بالإيمان والتسامح ...

وهذه الرسائل هي من السجن ... ولكن لماذا يسجن مثل ابن تيمية ؟ لم تسجنه دولة كافرة ولا سلطان غاشم ... ولكن ــ المؤسف أن ــ بعض المشايخ في عصره حسدوه (لانفراده بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطاعة الناس له ومحبتهم له وكثرة أتباعه)[1] .

هذا عدا عن تعصبهم لما ألفوه في الفقه والعقائد (وقد يكون بعضهم عن حسن نية) ... هؤلاء هم الذين أوغروا صدر الحاكم عليه ، فسجن في القاهرة والاسكندرية ودمشق .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٤/٣٧ .

وهنا تكمن مشكلة كبيرة . أيسجن عالم من أجل اجتهاد خالف فيه غيره من العلماء على الرغم أنه لم يخرج باجتهاده هذا عن شرائع الاسلام ؟! فكيف لا تتسع صدورنا لخلاف عالم نعلم أنه يحب الله ورسوله ؟! نقول هذا ولا نريد نبش الماضي ، ولكن هذه المخاصمات مازالت موجودة إلى الآن وهذا مما يؤسف له . ينبغي أن تتسع صدورنا للخلاف الذي قد يقع بيننا ـ إذا لم يكن بدعة أو ضلالة أو تشريعاً بغير ما أنزل الله ـ وألا نلجأ إلى المساجلات التي تظهر فيها البطولات الوهمية ، كما ينبغي ألا نستخدم العناوين التي تدل على أن المعركة كأنها مع العدو وبالسنان لا باللسان ...

ونعود إلى الشيخ في سجنه ... لقد بدأت المشاغبات عليه عندما ألف رسالة بعنوان (الحموية) رداً على سؤال ورده من حماه حول صفات الله سبحانه وتعالى وذلك عام (٦٩٨ هـ) ، فعقدت له المجالس في دمشق وسئل عن هذا الموضوع ، فشرح لهم هذه الأمور ، وقال لنائب السلطنة في دمشق : « لقد ألفت العقيدة الواسطية قبل هذا وقبل هجوم التتار » . فجيء بها وقرئت في عدة مجالس ... ولكن أكثرهم لم يستطع المعارضة لقوة الحجة ... ومن العجيب أن نائب السلطنة أراد أن ينهي الموضوع ويقرر أن هذه عقيدة الإمام « أحمد بن حنبل » فتنتهي الاشكالات ، ولكن ابن تيمية رفض وقال : « هذه عقيدة السلف، ولا يختص فيها الإمام أحمد » .

ويظهر أن المشايخ في مصر يستطيعون أن يفعلوا مايعجز عنه نظراؤهم في دمشق ، وذلك لأن ابن تيمية له وجاهة في دمشق عند الخاص والعام ، بينما أهل مصر لا يعرفونه .. فألّبوا عليه الأمير المتسلط يومئذ « ركن الدين بيبرس الجاشنكير »[1] وكان شيخه « نصر المنبجي » من المغالين في التصوف ...

وهنا جاء الأمر السلطاني باحضار ابن تيمية إلى القاهرة لمحاكمته أو محاكمة فكره ، وذلك في عام ٧٠٥هـ . وخشي نائب السلطنة في دمشق من ذهاب الشيخ إلى مصر ونصحه بعدم الذهاب ، ولكن الشيخ قرر الذهاب لأن في ذلك مصالح كثيرة .

توجه الشيخ إلى مصر ... ويصف لنا تلميذه « ابن عبد الهادي » ذلك اليوم ، حيث احتشد الناس لوداعه ، وهم بين باك وحزين أو متعجب[2] .

وصل الشيخ إلى مصر ، وعقد له مجلس وكان القاضي ابن مخلوف المالكي ، وشعر ابن تيمية أن الحكم هو الخصم ، فرفض

---

(١) كان السلطان يومئذ « محمد بن قلاوون » ولما أحسَّ أنه ليس له من الأمر شيء وأن الأمر بيد الجاشنكير وسلار ، خرج متظاهراً بالحج واستقر في الكرك .

انظر : محمد بن قلاوون للدكتور عبد العزيز مرزوق .

(٢) انظر العقود الدرية ، ص ٢٤٩ .

الجواب ، وقرروا سجنه في قلعة الجبل بالقاهرة ، ودخل معه السجن أخواه عبد الله وعبد الرحمن ... وأرسل رسالة إلى أحد أقربائه يذكر فيها أنه لم يقبل شيئاً من الكسوة السلطانية ولا تدنس بشيء من ذلك ...

بقي في هذا السجن سنة ونصف السنة ، وقد حاولوا اخراجه قبل هذه المدة فرفض لأنه علم أنهم ليسوا طلاب حق ، ويريدون إلزامه بأشياء لايرضاها ...

وفي سنة (٧٠٧ هـ) دخل الأمير « حسام الدين مهنا ابن عيسى » من أمراء العرب ، وأخرج الشيخ من السجن بعد أن استأذن في ذلك .

أقام الشيخ بالقاهرة وأصبحت تعقد له الحلقات والدروس في المساجد ويستفيد الناس منه ... ولكن أصحاب الأفكار العفنة الذين لايحبون الضوء انزعجوا من وجود مثل هذا الشيخ بين أظهرهم ، فاشتكوا إلى السلطان ؛ وعندئذ قرروا تسفيره إلى الشام ولكن على شروط ، فقبل بعد إلحاح أنصاره ، وخرج مع بريد الشام ، ثم رأوا أن يرجعوه إلى السجن[١] .

---

(١) كما قال سبحانه عن أهل مصر في يوسف : « **ثم بدا لهم من بعد مارأوا الآيات ليسجننه حتى حين** » . ومن العجيب أن الشيخ بقي في مصر سبع سنوات كأنها سني الخصب التي بشر بها يوسف عليه السلام بعد السنوات العجاف .

وهنا لابد أن ننقل هذه الصورة الرائعة التي نشاهدها في سجنه هذه المرة ، ننقلها من ترجمته في العقود الدرية : « ولما دخل الحبس وجد المحابيس مشتغلين بأنواع من اللعب يلتهون بها عما هم فيه كالشطرنج والنرد [1] ونحو ذلك من تضييع الصلوات ، فأنكر الشيخ عليهم أشد الإنكار وأمرهم بملازمة الصلاة والتوجه إلى الله بالأعمال الصالحة والتسبيح والاستغفار والدعاء ، وعلمهم من السنة ما يحتاجون إليه ، ورغبهم في أعمال الخير ، وحضَّهم على ذلك حتى صار الحبس بما فيه من الاشتغال بالعلم والدين خيراً من الزوايا والرُّبط والخوانق والمدارس ، وصار خلق من المحابيس إذا أُطلقوا يختارون الاقامة عنده . وكثر المترددون إليه حتى كاد السجن يمتلىء منهم » [2] .

فلم يعجبهم هذا ، فنقلوه إلى السجن في الاسكندرية . ثم إن السلطان « محمد بن قلاوون » رجع منتصراً على منافسيه بعد إقامته في الكرك (وكان معظماً للشيخ) ، فأمر باحضاره إلى القاهرة . جلس السلطان وعنده العلماء والأمراء ودخل ابن تيمية فقام السلطان من مجلسه وسعى إلى الشيخ فسلّم عليه ، وذهب به إلى مكان بعيد عن المجلس وقال له : « إن بعض الحاضرين

---

(١) هو المسمى بالشام (بالطاولة) .

(٢) العقود الدرية ، ص ٢٦٩ .

ــ يعني من العلماء ــ بايعوا الجاشنكير، وسعوا فيك» . واستفتاه في قتلهم ، فرفض الشيخ وقال له :

« إن هؤلاء لو ذهبوا لم تجد مثلهم في دولتك ، اما انا فهم في حل من حقي »(١) .

استقر الشيخ في القاهرة ، وسكن بالقرب من مسجد الحسين ، وعاد إلى بث العلم ... وكان شجاعاً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ...

ثم توجه إلى الشام بصحبة الجيش المصري الذي ذهب لصد هجوم التتار ، وذلك عام (٧١٢ هـ) ، فكانت مدة غيبته في مصر (سبع سنين وأياماً) ، واستقر في دمشق وعاد لنشر العلم .. ولكن مخالفيه لا يتركونه فقد أفتى بأشياء تخالف مذاهبهم ، ثم إنهم وجدوا في ثنايا كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم) موضوع « شد الرحال لزيارة القبور » ومنعها حسب النصوص ، وهو في ذلك معظم لرسول الله ﷺ . وهنا يظهر أن السلطان « قلاوون » بدأ يسمع الوشايات فيه فأمر بسجنه بالقلعة في دمشق ، ودخل السجن وهو يقول :

« فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب »(٢) .

---

(١) العقود الدرية ، ص ٢٨٢ .

(٢) سورة الحديد : الآية ١٣ .

وفي السجن مازال يؤلف ويشتغل بالتفسير وتلاوة القرآن والعبادة، ثم منعت عنه الأوراق والكتب والحبر .. وتوفي في هذا السجن عام (٧٢٨ هـ) رحمه الله ورضي عنه .

هذه قصة محنة هذا الإمام المجدد والمصلح . وهو أنموذج العلم والجهاد والقلب الكبير... حيث سامح خصومه وأحلَّهم من حقه إلا من كان عدواً لله ورسوله ..

وفقنا الله لفهم دينه والجهاد في سبيله ..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

محمد العبدة

١٢ ربيع الأول ١٤٠٠ هـ



١

رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية إلى والدته : يعتذر فيها عن إقامته بمصر ، لأنه يرى ذلك أمراً ضرورياً لتعليم الناس .

قال رحمه الله :

بسم الله الرحمن الرحيم

من أحمد بن تيمية إلى الوالدة السعيدة ، أقرّ الله عينها بنعمه وأسبغ عليها جزيل كرمه ، وجعلها من خيار إمائه وخدمه .

سلام عليكم ، ورحمة الله وبركاته وبعد :

فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، وهو للحمد أهل ، وهو على كل شيء قدير . ونسأله أن يصلي على خاتم النبيين ، وإمام المتقين محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً .

كتابي إليكم عن نعم من الله عظيمة ، ومنن كريمة وآلاء جسيمة ، نشكر الله عليها ، ونسأله المزيد من فضله .

ونعم الله كلما جاءت في نمو وازدياد ، وأياديه جلّت عن التعداد .

وتعلمون أن مقامنا الساعة في هذه البلاد ، إنما هو لأمور ضرورية ، متى أهملناها فسد علينا أمر الدين والدنيا ، ولسنا والله مختارين للبعد عنكم ، ولو حملتنا الطيور لسرنا إليكم ، ولكن الغائب عذره معه . وأنتم لو اطّلعتم على باطن الأمور فإنكم — ولله الحمد — ما تختارون الساعة إلا ذلك . ولم نعزم على الإقامة والاستيطان شهراً واحداً ، بل كل يوم نستخير الله لنا ولكم ، وادعوا لنا بالخيرة . فنسأل الله العظيم أن يخير لنا ولكم وللمسلمين ما فيه الخيرة في خير وعافية .

ومع هذا فقد فتح الله من أبواب الخير والرحمة والهداية والبركة ، مالم يكن يخطر بالبال ولا يدور في الخيال . ونحن في كل وقت مهمومون بالسفر ، مستخيرون الله سبحانه وتعالى ، فلا يظن الظان أنّا نؤثر على قربكم شيئاً من أمور الدنيا قط ، بل ولا نؤثر من أمور الدين ما يكون قربكم أرجح منه ، ولكن ثَمَّ أمور كبار نخاف الضرر الخاص والعام من إهمالها[1] . والشاهد يرى مالا يرى الغائب .

---

(١) قال الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه (ابن تيمية) صفحة ٦٤ : اما ضرره العام ، فانه ضلال الناس . واما الضرر الخاص ، فهو تبعة العالم بأمر إذا لم يبينه للناس . ثم هناك ضرر خاص أن ابن تيمية جاء إلى مصر متهماً في دينه ، فكان من حق نفسه عليه أن يزيل الاتهام ويخرج بريئاً .

والمطلوب كثرة الدعاء بالخيرة ، فإن الله يعلم ولا نعلم ، ويقدر ولا نقدر ، وهو علاّم الغيوب . وقد قال النبي ﷺ :

« من سعادة ابن آدم استخارته الله ورضاه بما يقسم الله له ، ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارته الله ، وسخطه بما يقسم له (١) » .

والتاجر يكون مسافراً فيخاف ضياع بعض ماله ، فيحتاج أن يقيم حتى يستوفيه ، وما نحن فيه أمر يجلّ عن الوصف ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، كثيراً كثيراً ، وعلى سائر مَنْ في البيت من الكبار والصغار ، وسائر الجيران والأهل والأصحاب واحداً ، واحداً .

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً (٢) .

---

(١) علق الشيخ حامد الفقي على هذا الحديث : رواه الترمذي وقال : حديث غريب . ورواه أحمد وأبو يعلى والحاكم وقال عنه : صحيح الاسناد .

انظر العقود الدرية ، ص ٢٥٨ .

(٢) انظر مجموع الفتاوى ٤٨/٢٨ ، والعقود الدرية / ٢٥٧ .

٢

رسالة الشيخ ابن تيمية إلى إخوانه في دمشق .

والظاهر أنه أرسلها بعد خروجه الأول من السجن ، حيث سجن سنة ونصف بدءاً من عام ٧٠٥ هـ . وقد أخرجه الأمير عيسى بن مهنا . ولكن نائب السلطنة في القاهرة طلب منه البقاء معه فاستجاب الشيخ حيث صادف ذلك رغبة عنده لأنه يريد أن يتصل بالناس ويعلمهم ويبث الدعوة السلفية . ويلاحظ في هذه الرسالة أنه عفى عن خصومه ، وطلب من إخوانه أن لا يؤذوا أحداً من أجله ، وهذا شأن العالم الواسع العقل ، الكبير القلب .

قال بعد أن حمد الله وصلى على نبيه ﷺ :

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد فإن الله ــ وله الحمد ــ قد أنعم عليّ من نعمه العظيمة ومننه الجسيمة ، وآلائه الكريمة ، ما هو مستوجب لعظيم الشكر ، والثبات على الطاعة ، واعتياد حسن الصبر ، على فعل المأمور . والعبد مأمور بالصبر في السراء أعظم من الصبر في الضراء . قال تعالى :

((ولئن أذقنا الإنسان رحمة مِنّا ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولَنّ : ذهب السيئات عني ، إنه لفرح فخور ، إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات . أولئك لهم مغفرة وأجر كبير))(١) .

---

(١) سورة هود ــ الآيات ٩ ، ١٠ ، ١١ .

وتعلمون أن الله سبحانه منّ في هذه القضية [1] من المنن التي فيها من أسباب نصر دينـه وعلوّ كلمته ، ونصر جنده ، وعزة أوليائه ، وقوة أهل السنة والجماعة ، وذلّ أهل البدعـة والفرقة ، وتقرير ما قُرر عندكم من السنة وزيادات على ذلك بانفتاح أبواب من الهدى والنصر ، والدلائل ، وظهور الحق لأمم لا يحصي عددهم إلا الله تعالى وإقبال الخلائق إلى سبيل السنة والجماعة ، وغير ذلك من المنن مالا بد معه من عظيم الشكر ، ومن الصبر ، وإن كان صبراً في سّراء .

وتعلمون أن من القواعد العظيمة التي هي من جماع الدين ، تأليف القلوب واجتماع الكلمة ، وصلاح ذات البين ، فإن الله تعالى يقول :

(فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم) [2] ويقول : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) [3] ويقول : (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم) [4]..

---

(١) أي قضية محاكمته في مصر وسجنه حيث إذا أراد الله نشر فضيلة أتاح لها لسان حسود . فقد استطاع بذلك بث آرائه هناك .

(٢) سورة الأنفال ـ الآية ١ .

(٣) سورة آل عمران ـ الآية ١٠٣ .

(٤) سورة آل عمران ـ الآية ١٠٥ .

وأمثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والائتلاف ، وتنهى عن الفُرقة والاختلاف .

وأهل هذا الأصل : هم أهل الجماعة ، كما أن الخارجين عنه هم أهل الفرقة .

وجماع السنة : طاعة الرسول ، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة :

« إن الله يرضى لكم ثلاثاً : أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاّه الله أموركم » .

وفي السنن من حديث زيد بن ثابت وابن مسعود ــ فقيهي الصحابة ــ عن النبي ﷺ أنه قال :

« نضر الله امرأ سمع منا حديثاً فبلغه إلى من لم يسمعه ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو افقه منه . ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله ، ومناصحة ولاة الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين ، فإن دعوتهم تحيط مَنْ وراءهم » .

وقوله : (لا يغل) أي لا يحقد عليهن ، فلا يبغض هــذه الخصال قلب المسلم بل يُحبّهن ، ويرضاهن[1] .

---

(١) واضح من تشديد الشيخ على الألفــة والمحبة ما لاقاه من الاختلاف ، وتعصب المشايخ ضده ... بسبب اجتهاد يرى أنه صحيح .. ثم هو يريد من هذا التمهيد الطويل أن لا يتعصب إخوانه ضد الذين آذوه كما سيذكره .

وأول ما أبدأ به من هذا الأصل : ما يتعلق بي فتعلمون ــ رضي الله عنكم ــ أني لا أحب أن يؤذى أحد من عموم المسلمين ــ فضلاً عن أصحابنا ــ بشيء أصلاً ، لا باطناً ولا ظاهراً ، ولا عندي عتب على أحد منهم ولا لوم أصلاً ، بل هم عندي من الكرامة والإجلال والمحبة والتعظيم أضعاف أضعاف ما كان ، كلٌ بحسبه ، ولا يخلو الرجل إما أن يكون مجتهداً مصيباً أو مخطئاً أو مذنباً . فالأول مأجور مشكور ، والثاني مع أجره على الاجتهاد فمعفو عنه مغفور له ، والثالث : فالله يغفر لنا وله ولسائر المؤمنين .

فنطوي بساط الكلام المخالف لهذا الأصل[1]، كقول القائل: فلان قصّر ، فلان ما عمل ، فلان أوذي الشيخ بسببه ، فلان كان سبب هذه القضية ، فلان كان يتكلم في كيد فلان .. ونحو هذه الكلمات ، التي فيها مذمّة لبعض الأصحاب والإخوان[2] ، فإني لا أسامح من آذاهم من هذا الباب . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

---

(١) ليس بعد هذا الصفح وهذا التسامح شيء . وهذا لا يصدر إلا عن عالم هو وريث الأنبياء لا شك .

(٢) ربما يقصد بعض أصحابه وإخوانه في دمشق ، الذين ضعفوا في هذه المحنة ، ولم يستمروا على منهج شيخهم . ولذلك ينهى أصحابه أن يؤذوهم ، ويعتذر لهم ويبين أن ليس في قلبه بغض لهم ، بل يقدرهم ، ويحبهم في الله .

بل مثل هذا يعود على قائله بالملام ، إلا أن يكون له حسنة ، ومن يغفر الله له إن شاء ، وقد عفا الله عما سلف • وتعلمون أيضاً : أن ما يجري من تغليظ أو تخشين على بعض الأصحاب والإخوان ـــ ما كان يجري بدمشق ، ومما جرى الآن بمصر ـــ فليس ذلك غضاضة ولا نقصاً في حق صاحبه ، ولا حصل بسبب ذلك تغير منا ولا بغض ، بل هو بعد ما عومل به من التغليظ والتخشين أرفع قدراً وأنبه ذكراً ، وأحب وأعظم •• وإنما هذه الأمور هي من مصالح المؤمنين ، التي يصلح الله بها بعضهم ببعض، فإن المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى ، وقد لا ينقلع الوسخ إلا بنوع من الخشونة ، لكن ذلك يوجب من النظافة والنعومة ، ما نحمد معه ذلك التخشين •

وتعلمون : أنّا جميعاً متعاونون على البر والتقوى ، واجب علينا نصر بعضنا بعضاً ، أعظم مما كان وأشد • فمن رام أن يؤذي بعض الأصحاب أو الإخوان لما قد يظنه من نوع تخشين عومل به بدمشق أو بمصر الساعة أو غير ذلك فهو الغالط •

وكذلك من ظن أن المؤمنين يبخلون عما أمروا به من التعاون والتناصر فقد ظن ظنّ سوءٍ «وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً»[1] وما غاب عنا أحد من الجماعة ، أو قدم إلينا الساعة أو قبل الساعة

---

(١) سورة يونس ـــ الآية ٣٦ .

إلا ومنزلته عندنا اليوم أعظم مما كانت وأجلّ وأرفع . وتعلمون ـ رضي الله عنكم ـ أن ما دون هذه القضية من الحوادث يقع فيها مـن اجتهاد الآراء ، واختلاف الأهواء وتنوع أحوال أهل الإيمان مالا بد منه ـ مـن نزغات الشيطان ـ مالا يتصور أن يَعْرَى عنه نوع الإنسان . وقد قال تعالى :

« وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً . ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات،ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات. وكان الله غفوراً رحيماً » (١) .

بل أنا أقول ما هو أبلغ من ذلك تنبيهاً بالأدنى على الأعلى وبالأقصى على الأدنى فأقول :

تعلمون كثرة ما وقع في هذه القضية (٢) مـن الأكاذيب المفتراة والأغاليط المظنونة ، والأهواء الفاسدة ، وأن ذلك أمر يجل عن الوصف ، وكل ما قيل من كذب وزور ، فهو في حقنا خير ونعمة . قال تعالى :

« إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم ، بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم ، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم » (٣) .

---

(١) سورة الأحزاب ـ الآيتان ٧٢ ، ٧٣ .

(٢) قضية اتهام المشايخ له في موضوع العقيدة وتحاملهم عليه وحسدهم له ثم زجهم له في السجن مع أن رأيه هو الصحيح .

(٣) سورة النور ـ الآية ١١ .

وقد أظهر الله من نور الحق وبرهانه ، ماردّ به إفك الكاذب وبهتانه ، فلا أحب أن يُنتصر من أحد بسبب كذبه عليّ أو ظلمه وعدوانه ، فإني قد أحللت كل مسلم . وأنا أحب الخير لكل المسلمين ، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي .

والذين كذبوا وظلموا منهم في حِلٍّ من جهتي . وأما ما يتعلق بحقوق الله : فإن تابوا تاب الله عليهم ، وإلا فحكم الله نافذ فيهم ، فلو كان الرجل مشكوراً على سوء عمله ، لكنت أشكر كلّ من كان سبباً في هذه القضية[1] ، لما يترتب عليه من خير الدنيا والآخرة ، لكن الله هو المشكور على حسن نعمه وآلائه وأياديه التي لا يقضى للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له . وأهل القصد الصالح يشكرون على قصدهم ، وأهل العمل الصالح يشكرون على عملهم ، وأهل السيئات نسأل الله أن يتوب عليهم .

وأنتم تعلمون هذا من خلقي ، والأمر أزيد مما كان وأوكد ، لكن حقوق الناس بعضهم مع بعض ، وحقوق الله عليهم هم فيها تحت حكم الله .

وأنتم تعلمون أن الصدّيق الأكبر في قضية الإفك التي أنزل الله فيها القرآن ، حلف لا يصل مِسطَح بن أثاثة ، لأنه كان من الخائضين في الإفك . فأنزل الله :

---

(١) لأنه حصل بسببها خير كثير لأهل مصر ، حيث قمع البدع هناك وأظهر عوارها ، وألقى الدروس في المساجد والمدارس .

« ولا يأتل اولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم » (١) .

فلما نزلت قال أبو بكر : « بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي » . فأعاد إلى مسطح النفقة التي كان ينفق .

ومع ما ذكر من العفو والإحسان ، وأمثاله ، وأضعافه والجهاد على ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة أمر لا بد منه :

« فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، اذلة على المؤمنين ، اعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . إنما وليكم الله ورسوله ، والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا ، فإن حزب الله هم الغالبون » (٢) .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً (٣) .

---

(١) سورة النور ــ الآية ٢٢ .

(٢) سورة المائدة ــ الآيات ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ .

(٣) انظر : العقود الدرية ، ص ٢٥٩ . ومجموع الفتاوى جزء ٢٨ ، ص ٥٠ .

٣

سجن الشيخ مرة ثانية في القاهرة ... ولكن اعداءه ضاقوا به ذرعاً وهو في السجن ، فنفوه إلى الاسكندرية ، فهناك ــ على الأقل ــ يكون بعيداً عنهم ، إن لم يحصل من يؤذيه ويرتاحون منه ، ولكن حصل العكس فقد بدأ الناس يأتون إليه ويسألونه ...

وهذه رسالة من أخيه شرف الدين عبد الله إلى أخيه لأمه بدر الدين المقيم في دمشق بعد أن توجه الشيخ إلى الاسكندرية يشرح فيها الحالة التي عليها شيخ الإسلام أحمد بن تيمية .

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله بن تيمية إلى أخيه بدر الدين :

سلام الله ورحمته وبركاته على الشيخ الإمام العالم الجليل بدر الدين ، وإلى الله عليه آلاءه وأتبعها ، وأسبغ عليه نعمه ونوّعها ، وجمعنا وإياه في هذه الدار على طاعته ، وفي دار القرار في دار كرامته مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين أهل ولايته .

أما بعد : فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو وهو للحمد أهل ، وهو على كل شيء قدير . وأصلي على سيد ولد آدم ، وخير خلق الله أجمعين ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فنحن والجماعة في نعم الله الكاملة ومننه الشاملة ، فمنها نزول الأخ الكريم بالثغر المحروس[1] ، فإن أعداء الله قصدوا بذلك أموراً ، يكيدون بها الإسلام وأهله . وظنوا أن ذلك يحصل عن قريب ، فانقلبت عليهم مقاصدهم الخبيثة المعلومة ، وانعكست من كل الوجوه .

وأقبل أهل الثغر أجمعون إلى الأخ ، متقبلين لما يذكره وينشره من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، والحط والوقيعة في أعدائهما من أهل البدع والضلالات .

واتفق أنه وجد بها الفرق الضالة فكشف أسرارهم وفضحهم واستتاب جماعات منهم ، وتوّب رئيساً من رؤسائهم . واشتهر ذلك واستقر عند عموم المؤمنين وخواصهم من أميرٍ وقاضٍ ، وفقيه ومفتٍ وشيخ وعموم المجاهدين ، وعلت كلمة الله بها على أعداء الله ورسوله .

فنسأل الله العظيم أن يعجل تمام النقمة عليهم ، وأن يقطع دابرهم وأن ينصر دينه وكتابه ورسوله .

نسأل الله العظيم أن يوفقك لما يحبه ويرضاه ، وأن يتولاك في جميع الأمور .

---

(١) يقصد الاسكندرية .

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ، وعلى السعيدة الكريمة الطيبة رضي الله عنها وأرضاها ، الوالدة التي منحها الله تعالى في آخر عمرها هذه الكرامة العظيمة والمنزلة الرفيعة والدرجة العلية .

وأكمل السلام وأنماه على جميع الأهل والإخوان ، والأصحاب والمعارف والجيران ..

كُتِبَ والخاطر مشغول بأمر المسلمين ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً (1) .

(1) العقود الدرية ، ص ٢٧٢ .

٤

رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية من سجنه بالاسكندرية إلى أصحابه ، يحثهم فيها على التبتل والخشوع لله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

((وأما بنعمة ربك فحدث)) (١) .

والذي أعرف به الجماعة أحسن الله إليهم في الدنيا وفي الآخرة ، وأتم عليهم نعمته الظاهرة والباطنة ، فإني ـ والله العظيم الذي لا إله إلا هو ـ في نعم من الله ما رأيت مثلها في عمري كله . وقد فتح الله سبحانه وتعالى من أبواب فضله ونعمته وخزائن جوده ورحمته مالم يكن بالبال ولا يدور في الخيال . هذا ويعرف بعضها بالذوق من له نصيب من معرفة الله وتوحيده وحقائق الإيمان ، وما هو مطلوب الأولين والآخرين من العلم والإيمان .

فإن اللذة والفرحة والسرور ، وطيب الوقت والنعيم الذي لا يمكن التعبير عنه ، إنما هو في معرفة الله سبحانه وتعالى وتوحيده والايمان به ، وانفتاح الحقائق الايمانية والمعارف القرآنية .

---

(١) سورة الضحى ـ الآية ١١ .

وقد قال بعض الشيوخ : لقد كنت في حال أقول فيها : (إن كان أهل الجنة في هذه الحال ، إنهم لفي عيش طيب) .

وقال آخر : (لتمر على القلب أوقات يرقص فيها طرباً ، وليس في الدنيا يشبه نعيم الآخرة ، إلا نعيم الايمان والمعرفة) . ولهذا كان النبي ﷺ يقول :

« أرحنا بالصلاة يا بلال » .

ولا يقول : أرحنا منها كما يقوله من تثقل عليه الصلاة ، كما قال الله تعالى :

« وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين » (١) .

والخشوع : الخضوع لله تعالى والسكون والطمأنينة إليه بالقلب والجوارح . وكان النبي ﷺ يقول :

« حُبِّبَ إليّ من دنياكم النساء والطيب » ثم يقول : « وجعلت قرة عيني في الصلاة » .

ولم يقل حبب إليّ من دنياكم ثلاث ، كما يرفعه بعض الناس ، بل هكذا رواه الامام أحمد والنسائي : أن المحبَّبَ إليه من الدنيا النساء والطيب ، وأما قرة العين فتحصل بحصول المطلوب وذلك في الصلاة .

والقلوب فيها وسواس النفس ، والشيطان يأمر بالشهوات والشبهات ما يفسد عليه طيب عيشها . فمن كان محباً لغير الله فهو

---

(١) سورة البقرة : الآية ٤٥ .

معذَّب في الدنيا والآخرة . فإن نال مراده عُذِّب به ، وإن لم ينله فهو في العذاب والحسرة والحزن .

وليس للقلوب سرور ولا لذة تامة ، إلا في محبة الله والتقرب إليه بما يحبه . ولا تمكن محبته إلا بالاعراض عن كل محبوب سواه . وهـذا حقيقة لا إله إلا الله ، وهي ملة إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ وسائر الأنبياء والمرسلين صـلاة الله وسلامه عليهم أجمعين .

وكان النبي ﷺ يقول لأصحابه : **« قولوا أصبحنا على فطرة الاسلام وكلمة الاخـلاص ودين نبينا محمد ﷺ وملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً ، وما كان من المشركين »** .

والخير كله في متابعة النبي ﷺ النبي الأمي الذي يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، وأكثر الناس لايعرفون حقائق ما جاء به ، إنما عندهم قسط من ذلك :

« والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » (١) .

والانسان ظالم جاهل كما قال الله تعالى : **« إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الانسان إنه كان ظلوماً جهولاً »** (٢) .

---

(١) سورة محمد : الآية ١٧ .

(٢) سورة الأحزاب : الآية ٧٢ .

وإنما غاية أولياء الله المتقين وحزبه المفلحين وجنده الغالبين التوبة ، ولهذا كان الدين مجموعاً في التوحيد والاستغفار . قال تعالى :

« فاستقيموا إليه واستغفروه » (١) .

ففعل جميع المأمورات وترك جميع المحظورات ، يدخل في التوحيد في قول : لا إله إلا الله .

والعبد إذا أنعم الله عليه بالتوحيد ، فشهد أن لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه ، حلاّه الله بالأمن والسرور والحبور والرحمة للخَلْق .

والخوف الذي يحصل في قلوب الناس ، هو الشرك الذي في قلوبهم . قال تعالى :

« سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا » (٢) .

وفي الحديث الصحيح : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخميصة ، تعس عبد الخميلة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش » .

ولما خوّفوا الخليل عليه السلام بما يعبدونه ويشركون به ، قال الخليل :

---

(١) سورة فصلت : الآية ٦ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٥١ .

« وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل بــه عليكم سلطاناً ، فــأي الفريقين أحــق بالأمــن إن كنتم تعلمون » (١) .

ولهذا قال الامــام أحمد لبعض الناس : (لو صححت لم تخف أحــداً) (٢) . وكل من وافق الرسول ﷺ في أمره فلــه ، نصيب من قوله :

« لا تحزن إن الله معنــا » (٣) .

فإن المعية الإلهية المتضمنة للنصر ، هي لما جاء به إلى يوم القيامة . وهذا قد دلّ عليه القرآن ، وقد رأينا من ذلك وجرّبنا ما يطول وصفه .

ومن شنأ ما جــاء به الرسول ﷺ ، فله من ذلك نصيب **« إن شانئك هو الأبتر » (٤) .**

ولهذا قال أبو بكر بن عياش : ولكن أهــل السنة يقون ويبقى ذكرهم ، وأهل البدعة يموتون ويموت ذكرهم . وذلك أن أهل البدعة شنؤوا ماجاء به الرسول ﷺ فأبترهم بقدر ذلك.

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٨١ .

(٢) أي لو صححت اعتقادك .

(٣) سورة التوبة : الآية ٤٠ .

(٤) سورة الكوثر : الآية ٣ .

والذين أعلنوا ماجاء به النبي ﷺ فصار لهم نصيب من قوله تعـالى :

((ورفعنا لك ذكرك)) (١) .

وكل من دعا غير الله فهو مشرك ، والعيان يصدق هذا ، فإن المخلوقين إذا اشتكى إليهم الانسان فضررهم أقرب من نفعهم . وهذا باب واسع قد كتبت فيه شيئاً كثيراً ، وعرفته علماً وذوقـاً وتجربة .

وفي الجملة : ما يبين نعم الله التي أنعم بها عليّ وأنا في هذا المكان ، أعظم قدراً وأكثر عدداً مالا يمكن حصره . وأكثر ما ينقص عليّ الجماعة (١) ، فأنـا أحب لهم أن ينالوا من اللذة والسرور والنعيم ماتقر به أعينهم ، وأن يفتح لهم من معرفة الله وطاعته والجهاد في سبيله مايصلون به إلى أعلى الدرجات . . .

والمقصود إخبار الجماعة بأن نعم الله علينا فوق ما كانت بكثير . ونحن بحمد الله في زيـادة من نعم الله ، وإن لم يمكن خدمة الجماعة باللقاء ، فأنا داعٍ لهم بالليل والنهار قياماً ببعض الواجب من حقهم ، وتقربـاً إلى الله تعالى في معـاملته فيهم . والذي آمر به كل شخص منهم : أن يتّقِ الله ويعمل لله ، مستعيناً

---

(١) سورة الانشراح : الآية ٤ .

(٢) يقصد إخوانه في دمشق .

بالله ، مجاهداً في سبيل الله ، ويكون دعاؤه وغيره بحسب ذلك كما أمر الله به ورسوله :

اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات ، وألف بين قلوبهم ، وأصلح ذات بينهم ، وانصرهم على عدوك وعدوهم وجنبهم الفواحش ماظهر منها وما بطن .

اللهم انصر كتابك ودينك وعبادك المؤمنين . اللهم عذّب الكفار والمنافقين الذين يصدون عن سبيلك ويبدلون دينك .

اللهم أنزل بأسك الذي لايُرَدّ عن القوم المجرمين . اللهم مجري السحاب ، ومنزل الكتاب ، وهازم الأحزاب اهزمهم وزلزهم وانصرنا عليهم ...

ربنا أعنّا ولا تُعن علينا ، وانصرنا ولا تنصر علينا ، وامكر لنا ولا تمكر علينا ، وانصرنا على من بغى علينا ..

ربنا اجعلنا لك شاكرين مطاوعين مخبتين ...

ربنا تقبل توبتنا ، واغسل حوبتنا ، وثبت حجتنا ، وسدد ألسنتنا ، واسلل سخائم صدورنا ...

والحمد لله ناصر السنة وخاذل أهل البدعة ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً [1].

---

(١) انظر مجموع الفتاوى ـ جزء ٢٨ ، ص ٣٠

٥

رجع الشيخ إلى القاهرة بعد قضـــاء ثمانية أشهر في سجن الاسكندرية . ورجوعه هذه المرة كان بأمر السلطـان ((محمد بن قلاوون)) ، وكان يعظم الشيخ ويعرف قدره . وكان السلطان قـد استعاد ملكه من ((ركن الدين الجاشنكير)) . ولذلك رجع الشيخ وهو معزّز مكرم، وسكن بجانب مسجد الحسين، وأخذ يبث علمه . وله مع السلطان مواقف محمودة ، وارسل من القاهرة هذه الرسالة إلى اهله حيث طلب فيها بعض كتبه لحاجته إليها ، وهو مع ذلك لم يعزم على الاقامة هناك .. يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم

تعلمون أنّا بحمد الله في نعم عظيمة ، ومنن جسيمة وآلاء متكاثرة وأياد متظاهرة ، لم تكن تخطر لأكثر الخلق ببـــال ولا تدور لهم في خيال . والحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى .

والحق دائماً في انتصار وعلوّ وازدياد ، والباطل في انخفاض وسفال ونفاد . وقد أخضع الله رقاب الخصوم ، وطلب أكابرهم من السلم والانقياد ما يطول وصفه .

ونحن والحمد لله ، قد اشترطنا عليهم في ذلك من الشروط مافيه عز الاسلام والسنة وانقماع الباطل والبدعة ، وقد دخلوا في ذلك كله . وامتنعنا حتى يظهر ذلك الى الفعل ، فلم نثق لهم بقول ولم نجبهم إلى مطلوبهم، حتى يصير المشروط معمولاً ، والمذكور مفعولاً ، ويظهر من عز الاسلام والسنة للخاصة والعامة مايكون من الحسنات التي تمحو سيئاتهم .

وكذلك جرى من الأسباب التي هي عز الاسلام وذل المشركين مما هو من أعظم نعم الله على عباده المؤمنين ، ووصف هذا يطول .

وقد أرسلت إليكم كتاباً أطلب ما صنفته في أمر الكنائس ، وهي كراريس بخطي ، قطعُ النصف بلدي . فترسلون ذلك إن شاء الله تعالى ، وتستعينون على ذلك بالشيخ «جمال الدين المزي»، فانه يقلب الكتب ويخرج المطلوب . وترسلون أيضاً من تعليق القاضي « أبي يعلى » الذي بخط القاضي « أبي الحسين » إن أمكن الجميع ، وهو أحد عشر مجلداً ، وإلا فمن أوله مجلداً ، أو مجلدين أو ثلاثة ... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

٦

كانت رحلة الشيخ إلى مصر ميمونة ، وإن كانت شاقة مجهدة ... وآن له أن يرجع إلى دمشق فعاد مع الجيش المصري الذي جاء لصد التتار ، ورجع إلى التدريس ونشر العلم وتصنيف الكتب والافتاء ... وفي بحثه وافتائه وصل إلى مسائل يخالف فيها بعض المذاهب ...

وهنا عاد الحسد والكيد ، ولكن الشيخ لايمكن ان يتراجع عن شيء يعتقد أنه صحيح .. ولذلك قرروا سجنه في القلعة في دمشق .. فأظهر الشيخ السرور بذلك وقال : « أنا كنت منتظراً ذلك ، وهذا فيه خير عظيم » . وكأنه أراد أن يرتاح قليلاً ، ويشتغل بذكر الله .. لقد سجنوه وأخرجوا الكتب من عنده .. ومع ذلك كتب في سجنه في الرد على « ابن الأخنائي المالكي » في قضية « شد الرحال » ، وكتب جملة من تفسير القرآن ... وأرسل من سجن القلعة بدمشق هذه الرسالة :

بسم الله الرحمن الرحيم

[ونحن ولله الحمد والشكر في نعم عظيمة ، تتزايد كل يوم، وخروج الكتب كان من أعظم النعم، فإني كنت حريصاً على خروج شيء منها لتقفوا عليه ، وهم كرهوا خروج (الأخنائية) فاستعملهم الله في إخراج الجميع ، وإلزام المنازعين بالوقوف عليه . فإن هذه

المسائل كانت خفيّة على أكثر الناس . فإذا ظهرت : فمن كان قصده الحق هداه الله ، ومن كان قصده الباطل قامت عليه حجة الله .

وما كتبت شيئاً من هذا ليكتم عن أحد ولو كان مبغضاً . والأوراق التي فيها جواباتكم وصلت ، وأنا طيب وعيناي طيبتان أطيب ماكانتا . ونحن في نعم عظيمة لاتحصى ولا تعد . والحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه .

وكل مايقضيه الله تعالى فيه الخير والرحمة والحكمة :
« إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » (١) .]

ثم منع عن الشيخ الأقلام والحبر ، فبعث بهذه الرسالة إلى اخوانه وقد كتبها بالفحم ، وبقي الشيخ بالقلعة حتى أتاه اليقين . يقول في آخر رسالة له :

[سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ونحن لله الحمد والشكر في نعم متزايدة ، وجميع ما يفعله الله فيه نصر" للاسلام :

« هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » (٢) .

---

(١) سورة يوسف : الآية ١٠٠ . انظر « مجموع الفتاوى » ، جزء ٢٨ ، ص ٤٧ . « والعقود الدرية » ، ص٣٢٨ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٣٣ .

ومن سنة الله أنه إذا أراد إظهار دينه ، أقام من يعارضه فيحق الحق بكلماته ، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق . والذي سعى فيه حزب الشيطان ، لم يكن مخالفة لشرع محمد ﷺ ؛ بل مخالفة لدين جميع المرسلين : إبراهيم وموسى والمسيح ومحمد خاتم النبيين صلى الله عليهم أجمعين .

وكانوا قد سعوا في أن لايظهر من جهة حزب الله ورسوله خطاب ولا كتاب ، وجزعوا من ظهور « الأخنائية » فاستعملهم الله تعالى حتى أظهروا أضعاف ذلك . ومقصودهم إظهار عيوبه ، فلم يجدوا إلا ماهو حجة عليهم ، ولم يمكنهم أن يظهروا علينا عيباً في الشرع والدين ، بل غاية ماعندهم : أنه خولف مرسوم بعض المخلوقين [1] . والمخلوق كائناً من كان ، إذا خالف أمر الله تعالى ورسوله لم يجب ، بل ولا يجوز طاعته .

وقول القائل : إنه يظهر البدع ، كلام يظهر فساده لكل مستبصر ، ويعلم أن الأمر بالعكس . وهذه قضية كبيرة لها شأن **((ولتعلمن نبأه بعد حين)) (٢)** .

---

(١) يقصد مرسوم السلطان « قلاوون » في منعه بالافتاء في قضية الطلاق ، ومسألة شد الرحال لزيارة القبور ، ولكنه رفض هذا لأنه لايكتم العلم .

(٢) سورة ص : الآية ٨٨ .

وكانوا يطلبون تمـــام « الأخنائيـــة » ، فعندهم ما يطمهم أضعافها وأقوى فقهاً منها ، وما فعلوه هو جهل منهم ، فقد دخلوا في شيء ماكانوا يعرفونه ، والأمر أعظم مما ظهر لكم . ونحن ولله الحمد على عظيم الجهاد في سبيله . بل جهادنا في هذا مثل جهاد يوم « قازان » [1] ، والجبلية والجهمية ، والاتحادية [2]..وأمثال ذلك . وذلك من أعظم نعم الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ...] .

---

(١) ملك التتار الذي ناقشه ابن تيمية وشدد عليه ، ثم قاتلهم بنفسه في موقعة « شقحب » .

(٢) أصحاب القول بالاتحاد بين الخلق والخالق وهم كفرة .

٧

رسالة شيخ الاسلام أحمد بن تيميــة إلى الشيخ « نصـر المنبجي » .

والشيخ « نصر المنبجي » من شيوخ الصوفية الذين حرّضوا « ركن الدين الجاشنكير » ، على ابن تيمية . ولذلـك ابعـده إلى الاسكندرية فقد كان المنبجي من شيوخ الجاشنكير ، وله تأثير قوي عليه ...

ومع ذلك نلاحظ أن ابن تيمية يتلطف معه ، وينصحه : بأن إشارات الصوفية وحبهم يجب أن يكون واضحاً وهو الحب لله ولرسوله ولشرعه ، وأن يلتزموا بشرعه ، أما الحب العام الهائم ، فهذا لا يفيد شيئاً . قال رحمه الله :

بسم الله الرحمن الرحيم

من أحمد بن تيمية إلى الشيخ العارف القدوة ، السالك الناسك (أبي الفتح نصر) فتح الله على باطنه وظاهره ما فتح به على قلوب أوليائه ، ونصره على شياطين الانس والجن في جهره وإخفائه . ونهج به الطريقة المحمدية الموافقة لشرعته ، وكشف به الحقيقة الدينية المميزة بين خلقه وطاعته .

أما بعد : فإن الله تعالى قد أنعم على الشيخ ، وأنعم عليه نعمة باطنة وظاهرة في الدين والدنيا ، وجعـل له عند خاصة المسلمين

ـ الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ـ منزلة علية، ومودة إلهية ، لما منحه الله تعالى به من حسن المعرفة والقصد ، وقد بعث الله محمداً ﷺ بأكمل محبة في أكمل معرفة ، فأخرج بمحبة الله ورسوله المحبة التي فيها اشراك وإجمال كما قال الله تعالى :

« ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله، والذين آمنوا أشد حباً لله » (١) .

ولهذا كانت المحبة الايمانية هي الموجبة للذوق الايماني ، والوجد الديني ، كما في الصحيحين عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ :

« ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الايمان في قلبه : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لايحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه ، كما يكره أن يلقى في النار » .

فجعل صلى الله تعالى عليه وسلم وجود حلاوة الايمان معلقاً بمحبة الله ورسوله الفاضلة ، وبالمحبة فيه في الله ، وبكراهة ضد الايمان . وفي صحيح مسلم عن العباس قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :

« ذاق طعم الايمان من رضي بالله رباً ، وبالاسلام ديناً وبمحمد رسولاً » .

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٦٥ .

فجعل ذوق طعم الايمان معلقاً بالرضى بهذه الأصول ، كما جعل الوجد معلقاً بالمحبة ، ليفرق صلى الله تعالى عليه وسلم بين الذوق والوجد الذي هو أصل الأعمال الظاهرة وثمرة الأعمال الباطنة، وبين ما أمر الله به ورسوله ﷺ وبين غيره،كما قال سهل بن عبد الله التستري : (كل وجد لايشهد له الكتاب والسنة فهو باطــل) .

ولهذا طالب الله تعالى مدعي محبته بقوله :

« إن كنتم تحبــون الله فاتبعوني ، يحببكم الله ويغفــر لكم ذنوبكم » (١) .

قال الحسن البصري : (ادعى قوم على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنهم يحبون الله ، فطالبهم بهذه الآية) .

فجعل محبة العبد لله موجبة لمتابعة رسوله ، وجعل متابعة رسوله موجبة لمحبة الرب عبده .

وقد ذكر نعت المحبين في قوله :

« فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه اذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم »(٢)

فنعت المحبين المحبوبين بوصف الكمال الذي نعت الله بـه رسوله الجامع بين معنى الجلال والجمال ، المتفرق في الملتين قبلنا :

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٣١ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٥٤ .

وهو الشدة والعزة على أعداء الله ، والذلة والرحمة لأولياء الله ورسوله . ولهذا يوجد كثير ممن له وَجْدٌ وحُبٌ مجمل مطلق كما قال فيه كبير من كبرائهم :

مشـــرد عـــن الوطـــن
مبعـــد عـــن السكن
يبكي الطول والدمن [1]
يهوى ولا يدري لمن ؟

فالشيخ ــ أحسن الله إليه ــ قد جعـــل الله فيه من المعرفة ما تتميز به المحبة الايمانية المحمدية المفصلة عن المجملة المشتركة.

ولهذا جاءت الشريعة الكاملة في العبـــادة باسم الله ، وفي السؤال باسم الرب فيقول المصلي والذاكر : الله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله . وفي السؤال :

« ربنا ظلمنا أنفسنا » (٢) ، « رب اغفر لي ولوالدي » (٣) ، « ربنـــا اغفرلنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنـــا » (٤) . وكثير مـــن المتوجهين السالكين [5] يشهد في سلوكه الربوبيـــة

---

(١) هكذا والظاهر أنها الطلل .

(٢) سورة الأعراف ــ الآية ٢٣ .

(٣) سورة نوح ــ الآية ٢٨ .

(٤) سورة آل عمران ــ الآية ١٤٧ .

(٥) أي من الصوفية .

والقيومية الكاملة الشاملة لكل مخلوق ، فيغيب ويفنى بهـذا التوحيد الرباني عما هـو مأمور به أيضاً ومطلوب منه ، وهـو محبوب الحق ومرضيه من التوحيد الالهي ، الذي هـو عبادته وحده لاشريك له وطاعته وطاعة رسوله ، والأمر بما أمر بـه ، والنهي عما نهى عنه ، والحب فيه ، والبغض فيه . ومن أعرض عن هذا التوحيد وأخذ بالأول ، فهو يشبه القدرية المشركة الذين قـالوا :

((لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا)) .

ومن أخذ بالثاني دون الأول : فهو من القدرية المجوسية الذين يزعمون أن الله لم يخلق أفعال العباد ، ولا شاء جميـع الكائنات . والأول ذهب إليه طوائف من الاباحية المنحلين عن الأوامر والنواهي وإنما يستعملون ذلك عند أهوائهم وإلا فهو لايستمر ، وهو كثير في المتألهة الخارجين عن الشريعة ، فان لهم زهاوات وعبادات فيها ماهو غير مأمور به ، فيفيدهم أحوالاً فيها ما هو فاسد ؛ يشبهون من بعض الوجوه الرهبان وعباد البدود[1] .

ولهذا قال الشيخ «عبدالقادر» قدس الله روحه : (كثير من الرجال إذا دخلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا وأنا انفتحت لي فيه روزنة [2] فنازعت أقدار الحق بالحق للحق ، والولي من يكون منازعاً للقدر لا من يكون موافقاً له) .

---

(١) جمع بد وهو من أصنام الهنود .

(٢) روزنة : كوة او فتحة .

وهذا الذي قاله الشيخ تكلم به على لسان المحمدية ، أي أن المسلم مأمور أن يفعل ما أمر الله به ، ويدفع ما نهى الله عنه ، وإن كانت أسبابه قد قـُدِّرت فيدفع قدر الله بقدر الله ، كما جاء في الحديث الذي رواه الطبراني في كتاب الدعاء عن النبي ﷺ :

« إن الدعاء والبلاء ليلتقيان بين السماء والأرض » . وفي الترمذي : (قيل يا رسول الله ، أرأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقي بها ، وتقى نتقيها . هل ترد من قدر الله شيئاً) ؟ فقال : « هن من قدر الله » .

والمسلم يرى أنه ما من دابة الا ربي آخذ بناصيتها ، وأنه على كل شيء وكيل ، وأنه رب العالمين ، وأن قلوب العباد ونواصيهم بيده ، لا خالق غيره ولا نافع ولا ضار ، ولا معطي ولا مانع ولا حافظ ولا معز ولا مذل سواه . ويشهد أيضاً فعل المأمورات مع كثرتها ، وترك الشبهات مع كثرتها لله وحده لا شريك له .

وهذا هو الدين الجامع العام الذي اشترك فيه جميع الأنبياء ، والإسلام العام والإيمان العام . وبه نزلت السور المكية وإليه الإشارة بقوله تعالى :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وماوصينا به إبراهيم وموسى وعيسى: أنأقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه »(١) . وبقوله : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » (٢) .

---

(١) سورة الشورى ــ الآية ١٣ .

(٢) سورة النحل ــ الآية ٣٦ .

ولهذا ترجم البخاري عليه : (باب ما جاء أن دين الأنبياء واحد) .

وقد قال تعالى :

« إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر ، وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١) .

فجمع في الملل الأربع : (من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً) وذلك قبل النسخ والتبديل .

وخص في أول الآية المؤمنين : وهو الإيمان الخاص الشرعي الذي قاله فيه :

(لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) (٢) .

والشرعة والمنهاج الإسلاميان ، فهو لأمة محمد ﷺ :

« خير أمة أخرجت للناس »[٣] ، وبها أنزلت السور المدنية ، إذ في المدينة النبوية شرعت الشرائع ، وسنت السنن ، ونزلت الأحكام والفرائض والحدود .

وقد بلغني أن بعض الناس ذكر عند خدمتكم الكلام في

---

(١) سورة البقرة ــ الآية ٢٧٤ .

(٢) سورة المائدة ــ الآية ٤٨ .

(٣) سورة آل عمران ــ الآية ١١٠ .

مذهب الاتحادية[1] وكنت قد كتبت إلى خدمتكم كتاباً اقتضى الحال من غير قصد أن أشرت فيه إشارة لطيفة إلى حال هؤلاء . ولم يكن القصد والله واحداً بعينه ، وإنما الشيخ هو مجمع المؤمنين ، فعلينا أن نعينه في الدين والدنيا بما هو اللائق به .

وقد كتبت في ذلك كتاباً ربما يرسل إلى الشيخ ، وقد كتب سيدنا الشيخ « عماد الدين » في ذلك رسائل ، والله تعالى يعلم ــ وكفى به عليماً ــ لولا أني أرى دفع ضرر هؤلاء[2] عن أهل طريق الله السالكين إليه من أعظم الواجبات لم يكن للمؤمنين بالله ورسوله حاجة إلى أن تكشف أسرار الطريق . ولكن الشيخ أحسن الله تعالى إليه ، يعلم أن مقصود الدعوة النبوية ، بل المقصود بخلق الخلق ، وإنزال الكتب وإرسال الرسل أن يكون الدين كله لله .

وكثيراً ما كنت أظن أن ظهور مثل هؤلاء من أكبر أسباب ظهور التتار واندراس شريعة الإسلام ، وأن هؤلاء مقدمة الدجال الأعور الكذاب الذي يزعم أنه هو الله . وقولهم يجمع كل شرك في العالم ، وهم لا يوحدون الله سبحانه وتعالى ، وإنما يوحدون القدر المشترك بينه وبين المخلوقات ، فهم بربهم يعدلون .

---

(١) أي اتحاد الله في خلقه ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

(٢) أي الاتحادية .

ولهذا حدثني الثقة أن أحدهم كان يريد الذهاب إلى الهند وقال : إن أرض الإسلام لا تسعه ، لأن الهند مشركون يعبدون كل شيء حتى النبات والحيوان .

ولو سلك هؤلاء طريق الأنبيـاء والمرسلين عليهم السلام واتبعوا طريق السابقين الأولين ، لسلكوا طريق الهدى ووجدوا برد اليقين وقرة العين .

وأنا أسأل الله العظيم أن يصلح أمر المسلمين عامتهم وخاصتهم وأن يجعل الشيخ من دعاة الخير الذين قال الله سبحانه فيهم : **« ولتكن منكم أمة : يدعون إلى الخير ويأمـرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » (١)** .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته(٢) .

---

(١) سورة آل عمران ــ الآية ١٠٤ .

(٢) من مجموع الفتاوى لابن تيمية ، طبعة الرياض ، جزء ٢ صفحة ٤٥٢ ، بتصرف .

٨

رسالة إمام المتقين شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية ، إلى ملك قبرص ورؤساء الدين والأمراء والكتّاب وأتباعهم لما سئل عن مسائل أرادوا تفهمها : فشرح لهم رسالة الأديان التي سبقت أكمل الرسالات ، وفرّق بين مفهوم المسلمين لها وبين ما طرأ على تلك العقائد آنذاك من تحريف وطمس لشريعة التوحيد .

بسم الله الرحمن الرحيم

« من أحمد بن تيمية إلى سرجواس عظيم أهل ملته ، ومن تحوط به عنايته من رؤساء الدين ، وعظماء القسيسين ، والرهبان ، والأمراء ، والكتّاب ، وأتباعهم : سلام على من اتبع الهدى » .

أما بعد : فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو إله إبراهيم وآل عمران ، ونسأله أن يصلي على عباده المصطفين وأنبيائه المرسلين ، ويخص بصلاته وسلامه أولي العزم الذين هم سادة الخلق وقادة الأمم ، الذين خصّوا بأخذ الميثاق وهم : « نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد » كما سماهم الله تعالى في كتابه فقال عز وجل :

(شرع لكم من الدين ماوصَّى به نوحاً والذي اوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه ، كَبُرَ على المشركين ما تدعوهم إليه . الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب) (١) . وقال تعالى : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعدَّ للكافرين عذاباً أليماً) (٢) .

ونسأله أن يخص بشرائف صلاته وسلامه خاتم المرسلين ، وخطيبهم إذا وفدوا على ربهم وإمامهم إذا اجتمعوا ، شفيع الخلائق يوم القيامة ، نبي الرحمة ونبي الملحمة ، الجامع محاسن الأنبياء ، الذي بشر به عبد الله وروحه وكلمته التي ألقاها إلى الصديقة الطاهرة البتول التي لم يمسها بشر قط مريم ابنة عمران ، ذلك مسيح الهدى عيسى بن مريم ، الوجيه في الدنيا والآخرة ، المقرب عند الله ، المنعوت بنعت الجمال والرحمة لما انجر بنو إسرائيل فيما بعث به موسى من نعت الجلال والشدة ، وبعث الخاتم الجامع بنعت الكمال المشتمل على الشدة على الكفار والرحمة بالمؤمنين ، والمحتوي على محاسن الشرائع والمناهج التي كانت قبله ، صلى الله عليهم وسلم أجمعين ، وعلى من تبعهم إلى يوم القيامة .

---

(١) سورة الشورى ـ الآية ١٣ .

(٢) سورة الأحزاب ـ الآيتان ٧ ، ٨ .

أما بعد : فإن الله خلق الخلائق بقدرته ، وأظهر فيهم آثار مشيئته وحكمته ورحمته ، وجعل المقصود الذي خلقوا له فيما أمرهم به هو عبادته • وأصل ذلك هو معرفته ومحبته ، فمن هداه الله صراطه المستقيم آتاه رحمة وعلماً ومعرفة بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، ورزقه الإنابة إليه والوجل لذكره ، والخشوع له والتأله له ، فحنَّ إليه حنين النسور إلى أوكارها وكلف بحبه كلف الصبي بأمه ، لا يعبد إلا إياه رغبة ورهبة ومحبة ، وأخلص دينه لمن الدنيا والآخرة له ، رب الأولين والآخرين ، مالك يوم الدين ، خالق ما تبصرون ومالا تبصرون ، عالم الغيب والشهادة الذي أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون • لم يتخذ من دونه أنداداً كالذين اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله ، ولم يشرك بربه أحدا ، ولم يتخذ من دونه وليا ولا شفيعا ، لا ملكا ولا نبياً ولا صديقاً ، فإن كلُّ مَنْ في السموات والأرض إلا آتِ الرحمن عبداً • لقد أحصاهم وعدَّهم عداً ، وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً • فهنالك اجتباه مولاه واصطفاه وآتاه رشده ، وهداه لما اختلف فيه من الحق بإذنه فإنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم •

وذلك أن الناس كانوا بعد آدم عليه السلام وقبل نوح عليه السلام على التوحيد والإخلاص كما كان عليه أبوهم آدم

أبو البشر عليه السلام حتى ابتدعوا الشرك وعبادة الأوثان ، بدعة من تلقاء أنفسهم ، لم ينزل الله بها كتاباً ، ولا أرسل بها رسولاً ، بشبهات زيّنها الشيطان من جهة المقاييس الفاسدة ، والفلسفة الحائدة ، قوم منهم زعموا أن التماثيل طلاسم الكواكب السماوية ، والدرجات الفلكية ، والأرواح العلوية ، وقوم اتخذوها على صورة من كان فيهم من الأنبياء والصالحين ، وقوم جعلوها لأجل الأرواح السفلية من الجن والشياطين ، وقوم على مذاهب أخر .

وأكثرهم لرؤسائهم مقلدون ، وعن سبيل الهدى ناكبون ، فابتعث الله نبيه نوحاً عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وينهاهم عن عبادة ما سواه وإن زعموا أنهم يعبدونهم ليتقربوا بهم إلى الله زُلفى ويتخذوهم شفعاء ، فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فلما أعلمه الله أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، دعا عليهم فأغرق الله تعالى أهل الأرض بدعوته ، وجاءت الرسل بعده تَتْرى إلى أن عمّ الأرض دين الصابئة والمشركين ، لما كان النماردة والفراعنة ملوك الأرض شرقاً وغرباً ، فبعث الله تعالى إمام الحنفاء وأساس الملة الخالصة والكلمة الباقية إبراهيم خليل الرحمن ، فدعا الخلق من الشرك إلى الإخلاص ونهاهم عن عبادة الكواكب والأصنام ، وقال :

(وجَّهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين)(١) وقال لقومه : (أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدوّلي إلا ربَّ العالمين . الذي خلقني فهو يهدين، والذي هو يطعمني ويَسقين ، وإذا مرضت فهو يَشفين ، والـذي يميتني ثم يُحيين، والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يومَ الدين)(٢).

وقال إبراهيم عليه السلام ومن معه لقومهم : (إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده) (٣) .

فجعل الله الأنبياء والمرسلين من أهل بيته ، وجعل لكـل منهم خصائص ورفع بعضَهم فوق بعضٍ درجات ، وآتى كلاً منهم من الآيات ما آمن على مثله البشر .

فجعل لموسى العصا حية حتى ابتلعت ماصنعت السحرة..من الحبال والعصى ، وكانت شيئاً كثيراً ، وفلق له البحر حتى صار يابساً،والماء واقفاً حاجزاً بين اثني عشر طريقاً على عدد الأسباط.. وظلّل عليه وعلى قومه الغمام الأبيض يسير معهم ، وأنزل عليهم صبيحة كل يوم المنّ والسلوى ، وإذا عطشوا ضرب موسى بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم .

---

(١) سورة الأنعام ــ الآية ٧٩ .

(٢) سورة الشعراء ــ الآيات : ٧٥ ــ ٨٢ .

(٣) سورة المتحنة ــ الآية ٤ .

وبعث بعده أنبياء من بني إسرائيل منهم من أحيى الله على يده الموتى ، ومنهم من شفى اللهُ على يده المرضى ، ومنهم من أطلعه على ما شاء من غيبه ، ومنهم من سخَّر له المخلوقات • ومنهم من بعثه بأنواع المعجزات •

وهذا مما اتفق عليه جميع أهل الملل وفي الكتب التي بأيدي اليهود والنصارى والنبوات التي عندهم وأخبار الأنبياء عليهم السلام ، مثل : « شعياء وأرمياء ودانيال وحبقوق وداود وسليمان » وغيرهم ، وكتاب « سِفر الملوك » وغيره من الكتب ما فيه معتبر •

وكانت بنو إسرائيل أمة قاسية عاصية ، تارة يعبدون الأصنام والأوثان ، وتارة يعبدون الله ، وتارة يقتلون النبيين بغير الحق ، وتارة يستحلون محارم الله بأدنى الحيل ، فلُعنوا أولاً على لسان داود ، وكان من خراب بيت المقدس ما هو معروف عند أهل الملل كلهم •

ثم بعث الله المسيح بن مريم رسولاً قد خلت من قبله الرسل وجعله وأمّه آية للناس ، حيث خلقه من غير أب إظهاراً لكمال قدرته ، وشمول كلمته حيث قسم النوع الإنساني الأقسام الأربعة ، فجعل آدم من غير ذكر ولا أنثى ، وخلق زوجه حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق المسيح بن مريم من أنثى بلا ذكر ، وخلق سائرهم من الزوجين الذكر والأنثى • وآتى عبده المسيح من الآيات البينات ما جرت به سنته فأحيى الموتى ، وأبرأ

الأكمه والأبرص ، وأنبأ الناس بما يأكلون ومـا يدّخرون في بيوتهم ، ودعا إلى الله وإلى عبادته متبعاً سنة إخوانه المرسلين ، مصدقاً لمن قبله ومبشراً بمن يأتي بعده .

وكان بنو إسرائيل قد عتوا وتمردوا ، وكان غالب أمـره اللين والرحمة والعفو والصفح ، وجعل في قلـوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ، وجعل منهم قسيسين ورهباناً ، فتفرق النـاس في المسيح عليه السلام ومن اتبعه من الحواريين ثلاثة أحـزاب : قوم كذبوه وكفروا به وزعموا أنه ابن بغي ، ورموا أمه بالفِرْية ونسبوه إلى «يوسف النجار» ، وزعموا أن شريعة التوراة لم ينسخ منها شيء ، وأن الله لم ينسخ ما شرعه بعدمـا فعلوه بالأنبياء ، وما كان عليهم من الآصار في النجاسات والمطاعم . وقوم غلوا فيه وزعموا أنه الله وابن الله وأن اللاهوت تدرع الناسوت وأن رب العالمين نزل وأنزل ابنه ليصلب ويقتل فداء لخطيئة آدم عليه السلام، وجعلوا الإله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن لـه كفواً أحد قد ولد واتخذ ولداً ...

وتفرقوا في التثليث والاتحاد تفرقاً ، وتشتتوا تشتتاً لا يقر به عاقل ولم يجيء به نقل إلا كلمات متشابهات في الإنجيل وما قبله من الكتب ، قد بيَّنتها كلمات محكمات في الإنجيل وما قبله ، كلها تنطق بعبودية المسيح وعبادته لله وحده ودعائه وتضرعه .

ولما كان أصل الدين هو الإيمان بالله ورسوله كما قال خاتم النبيين والمرسلين : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » • وقال :

« لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله » •

كان أمر الدين توحيد الله والإقرار برسله • ولهذا كان الصابئون والمشركون كالبراهمة ونحوهم من منكري النبوات مشركين بالله في إقرارهم وعبادتهم وفاسدي الاعتقاد في رسله •

فأرباب التثليث في الوحدانية والاتحاد في الرسالة قد دخل في أصل دينهم من الفساد ماهو بيّن بفطرة الله التي فطر الناس عليها وبكتب الله التي أنزلها •

ولهذا كان عامة رؤسائهم من القسيسين والرهبان ما يدخل فيهم من البطارقة والمطارنة والأساقفة إذا صار الرجل منهم فاضلاً مميزاً فإنه ينحل عن دينه ويصير منافقاً لملوك أهل دينه وعامتهم رضى بالرياسة عليهم وبما يناله من الحظوظ : كالذي كان لبيت المقدس الذي يقال له «ابن البوري»، والذي كان بدمشق الذي يقال له «ابن القف»، والذي بقسطنطينية وهو البابا عندهم، وخلق كثير من كبار البابوات والمطارنة والأساقفة لما خاطبهم قوم من الفضلاء أقروا لهم بأنهم ليسوا على عقيدة النصارى وإنما بقاؤهم على ماهم عليه لأجل العادة والرياسة ، كبقاء الملوك والأغنياء على ملكهم وغناهم ، ولهذا تجد غالب فضلائهم إنما همة أحدهم نوع من

العلم الرياضي كالمنطق والهيئة والحساب والنجوم ، أو الطبيعي كالطب ومعرفة الأركان ، أو التكلم في الإلهي على طريقة الصابئة الفلاسفة الذين بعث إليهم إبراهيم الخليل عليه السلام ، قد نبذوا دين المسيح والرسل الذين قبله وبعده وراء ظهورهم وحفظوا رسوم الدين لأجل الملوك والعامة ...

ثم إن هؤلاء عمدوا إلى الشريعة التي يعبدون الله بها فناقضوا الأولين من اليهود فيها مع أنهم يأمرون بالتمسك بالتوراة إلا ما نسخه المسيح . قصر هؤلاء في الأنبياء حتى قتلوهم ، وغلا هؤلاء فيهم حتى عبدوهم وعبدوا تماثيلهم . وقال أولئك إن الله لا يصلح له أن يغير ما أمر به فينسخه لا في وقت آخر ولا على لسان نبي آخر ، وقال هؤلاء : بل الأحبار والقسيسون يغيرون ما شاؤوا ويحرِّمون ما رأوا ، ومن أذنب ذنباً وضعوا عليه ما رأوا من العبادات وغفروا له . ومنهم من يزعم أنه ينفخ في المرأة من روح القدس ، فيجعل البخور قرباناً . وقال أولئك : حرم علينا أشياء كثيرة . وقال هؤلاء ما بين البقة والفيل حلال كل ما شئت ودع ما شئت . وقال أولئك : النجاسات مغلظة ، حتى إن الحائض لا يقعد معها ولا يؤكل معها . وهؤلاء يقولون ماعليك شيء نجس ولا يأمرون بختان ولا غسل من جنابة ولا إزالة نجاسة ، مع أن المسيح والحواريين كانوا على شريعة التوراة .

ثم إن الصلاة إلى المشرق لم يأمر بها المسيح ولا الحواريون، وإنما ابتدعها قسطنطين أو غيره . وكذلك الصليب إنما ابتدعه

قسطنطين برأيه وبمنام زعم أنه رآه . وأما المسيح والحواريون فلم يأمروا بشيء من ذلك .

والدين الذي يتقرب العباد به إلى الله لابد أن يكون الله أمر به وشرعه على ألسنة رسله وأنبيائه ، وإلا فالبدع كلها ضلالة ، وما عبدت الأوثان إلا بالبدع ، وكذلك إدخال الألحان في الصلوات لم يأمر بها المسيح ولا الحواريون .

وبالجملة : فعامة أنواع العبادات والأعياد التي هم عليها لم ينزل بها الله كتاباً ولا بعث بها رسولاً ، لكن فيهم رأفة ورحمة . وهذا من دين الله بخلاف الأولين فإن فيهم قسوة ومقتاً وهذا مما حرمه الله تعالى ، لكن الأولين لهم تمييز وعقل مع العناد والكبر ، والآخرون فيهم ضلال عن الحق وجهل بطريق الله ...

وقد آمن جماعات من علماء أهل الكتاب قديماً وحديثاً ، وهاجروا إلى الله ورسوله ، وصنفوا في كتب الله من دلالات نبوة النبي خاتم المرسلين ، وما في التوراة والزبور والإنجيل من مواضع لم يدبّروها ، وكذلك الحواريون . فلما اختلف الأحزاب من بينهم هدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، فبعث النبي الذي بشر به المسيح ومَن قبله من الأنبياء ، داعياً إلى ملة إبراهيم ودين المرسلين قبله وبعده ، وهو عبادة الله وحده لاشريك له ، وإخلاص الدين كله لله ، وطهر الأرض من عبادة الأوثان ، ونزه الدين عن الشرك دقّه وجله ، بعد ما كانت الأصنام تُعبد في أرض الشام وغيرها في دولة بني إسرائيل ودولة الذين قالوا إنّا

نصارى ، وأمر بالإيمان بجميع كتب الله المنزلة كالتوراة والإنجيل والزبور والفرقان وبجميع أنبياء الله من آدم إلى محمد .

قال الله تعالى : (وقالوا كونوا هوداً او نصارى تهتدوا ، قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون)(١) .

وأمر الله ذلك الرسول بدعوة الخلق إلى توحيده بالعدل فقال تعالى : (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون) (٢) . وقال تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب)(٣). وقال تعالى : (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس : كونوا عباداً لي من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) (٤) .

---

(١) سورة البقرة ــ الآيات : ١٣٥ ــ ١٣٨ .

(٢) سورة آل عمران ــ الآية ٦٤ .

(٣) سورة الشورى ــ الآية ٥١ .

(٤) سورة آل عمران ــ الآيتان : ٧٩ ، ٨٠ .

وأمره أن تكون صلاته وحجه إلى بيت الله الحرام الذي بناه خليله إبراهيم أبو الأنبياء وإمام الحنفاء ، وجعل أمته وسطاً ، فلم يغلوا في الأنبياء كغلو من عدلهم بالله[1]، وجعل فيهم شيئاً من الإلهية وعبدهم وجعلهم شفعاء ، ولم يجفوا جفاء من آذاهم واستخف بحرماتهم وأعرض عن طاعتهم ، بل عزروا الأنبياء أي عظموهم ونصروهم وآمنوا بما جاؤوا به وأطاعوهم واتبعوهم وائتموا بهم وأحبوهم وأجلوهم ، ولم يعبدوا إلا الله ، فلم يتكلوا إلا عليه ، ولم يستعينوا إلا به مخلصين له الدين حنفاء .

وكذلك في الشرائع قالوا : ما أمرنا الله به أطعناه وما نهانا عنه انتهينا ، وإذا نهانا عما كان أحله كما نهى بني إسرائيل عما كان أباحه ليعقوب ، أو أباح لنا ما كان حراماً كما أباح المسيح بعض الذي حرم الله على بني إسرائيل سمعنا وأطعنا .

وأما غير رسل الله وأنبيائه فليس لهم أن يبدّلوا دين الله ، ولا يبتدعوا في الدين مالم يأذن به الله . والرسل إنما قالوا تبليغاً عن الله ، فإنه سبحانه له الخلق والأمر ، فكما لا يخلق غيره لا يأمر غيره :

(إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون)(٢) .

---

(١) ويقصد أن الأمم السابقة سوّت أنبياءها بالله .

(٢) سورة يوسف ـ الآية ٤٠ .

وتوسطت هـذه الأمة في الطهارة والنجاسة ، وفي الحلال والحرام ، وفي الأخلاق ، ولم يجردوا الشدة كما فعله الأولون ، ولم يجردوا الرأفة كما فعله الآخرون . بل عاملوا أعداء الله بالشدة، وعاملوا أولياء الله بالرأفة والرحمة، وقالوا في المسيح ما قاله سبحانه وتعالى وما قالـه المسيح والحواريون ، لا ما ابتدعه الغالون والجافون .

وقد أخبر الحواريون عن خاتم المرسلين أنه يبعث من أرض اليمن وأنه يبعث بقضيب الأدب وهو السيف . وأخبر المسيح أنه يجيء بالبينات والتأويل ، وأن المسيح جاء بالأمثال ، وهذا باب يطول شرحه ...

وإنما نبه الداعي لعظيم ملته وأهله ، لما بلغني ما عنده من الديانة والفضل ومحبة العلم وطلب المذاكرة ، ورأيت الشيخ أبا العباس المقدسي شاكراً من الملك من رفقه ولطفه وإقباله عليه وشاكراً من القسيسين ونحوهم .

ونحن قوم نحب الخير لكل أحد ، ونحب أن يجمع الله لكم خير الدنيا والآخرة ، فإن أعظم ما عبد الله به نصيحة خلقه ، وبذلك بعث الله الأنبياء والمرسلين ، ولا نصيحة أعظم من النصيحة فيما بين العبد وبين ربه ، فإنه لابد للعبد من لقاء الله ، ولابد أن الله يحاسب عبده كما قال تعالى :

(فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين)(١) .

---

(١) سورة الأعراف ــ الآية ٦ .

وأما الدنيا فأمرها حقير ، وكبيرها صغير ، وغاية أمرها يعود إلى الرياسة والمال • وغاية ذي الرياسة أن يكون كفرعون الذي أغرقه الله في اليم انتقاماً منه ، وغاية ذي المال أن يكون كقارون الذي خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة لما آذى نبي الله « موسى » •

وهذه وصايا المسيح ومن قبله ومن بعده من المرسلين كلها تأمر بعبادة الله ، والتجرد للدار الآخرة ، والإعراض عن زهرة الحياة الدنيا • ولما كان أمر الدنيا خسيساً رأيت أن أعظم مايهدى لعظيم قومه المفاتحة في العلم والدين بالمذاكرة فيما يقرب إلى الله، والكلام في الفروع مبني على الأصول ، وأنتم تعلمون أن دين الله لايكون بهوى النفس ولا بعادات الآباء وأهل المدنية ، وإنما ينظر العاقل فيما جاءت به الرسل وفيما اتفق الناس عليه وما اختلفوا فيه ، ويعامل الله تعالى بينه وبين الله تعالى بالاعتقاد الصحيح والعمل الصالح ، وإن كان لايمكن الانسان أن يظهر كل ما في نفسه لكل أحد فينتفع هو بذلك القدر •

وإن رأيت من الملك رغبة في العلم والخير كاتبته وجاوبته عن مسائل يسألها ، وقد كان خطر لي أن أجيء إلى قبرص لمصالح في الدين والدنيا ، لكن إذا رأيت من الملك ما فيه رضى الله ورسوله عاملته بما يقتضيه عمله ، فإن الملك وقومه يعلمون أن الله قد أظهر من معجزات رسله عامة ، ومحمد خاصة ما أيد به دينه ، وأذل الكفار والمنافقين •

ولما قدم مقدم المغول « غازان » وأتباعه إلى دمشق ، وكان قد انتسب إلى الإسلام ، لكن لم يرض الله ورسوله والمؤمنون بما فعلوه ، حيث لم يلتزموا دين الله ، وقد اجتمعت به وبأمرائه وجرى لي معهم فصول يطول شرحها لا بد أن تكون قد بلغت الملك ، فأذله الله وجنوده لنا حتى بقينا نضربهم بأيدينا ونصرخ فيهم بأصواتنا ، وكان معهم « صاحب سيس »[1] مثل أصغر غلام يكون ، حتى كان بعض المؤذنين الذين معنا يصرخ عليه ويشتمه وهو لا يجترىء أن يجاوبه حتى إن وزراء « غازان » ذكروا ما ينم عليه من فساد النية له ، وكنت حاضراً لما جاءت رسلكم إلى ناحية الساحل ، وأخبرني التتار بالأمر الذي أراد « صاحب سيس » أن يدخل بينكم وبينه فيه حيث منّاكم بالغرور، وكان التتار من أعظم الناس شتيمة لصاحب « سيس » وإهانة له ، ومع هذا فإنا كنا نعامل أهل ملتكم بالإحسان إليهم والذب عنهم .

وقد عرف النصارى كلهم أني لما خاطبت التتار في إطلاق الأسرى وأطلقهم « غازان » و « قطلو شاه » وخاطبت مولاي فيهم فسمح بإطلاق المسلمين ، قال لي : لكن معنا نصارى أخذناهم

---

(١) مدينة شمال انطاكية وطرسوس اصبحت تحت حكم النصارى منذ القرن الرابع الهجري .

انظر اطلس التاريخ الاسلامي ، تاليف : هارى هازارد ، ترجمة ابراهيم زكي .

من القدس فهؤلاء لا يطلقون • فقلت له : بل جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا فإنّا نفكّهم ولا ندع أسيراً ، لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة • وأطلقنا من النصارى من شاء الله فهذا عملنا وإحساننا والجزاء على الله •

وكذلك السبي الذي بأيدينا من النصارى يعلم كل أحد إحساننا ورحمتنا ورأفتنا بهم ، كما أوصانا خاتم المرسلين حيث قال في آخر حياته :

« الصلاة وما ملكت أيمانكم » وقال الله تعالى (ويطعمون الطعام على حُبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً)(١) •

ومع خضوع التتار لهذه الملة وانتسابهم إلى هذه الملة فلم نخادعهم ولم ننافقهم ، بل بينّا لهم ما هم عليه من الفساد والخروج عن الإسلام الموجب لجهادهم ، وأن جنود الله المؤيدة وعساكره المنصورة المستقرة بالديار الشامية والمصرية مازالت منصورة على من ناوأها ، مظفرة على من عاداها • وفي هذه المدة لما شاع عند العامة أن التتار مسلمون أمسك العسكر عن قتالهم فقتل منهم بضعة عشر ألفاً ولم يقتل من المسلمين مائتان ، فلما انصرف العسكر إلى مصر وبلغه ما عليه هذه الطائفة الملعونة من الفساد وعدم الدين خرجت جنود الله وللأرض منها وئيد ، قد ملأت السهل والجبل في كثرة وقوة وعدة وإيمان وصدق قد بهرت

---

(١) سورة الانسان ـ الآية ٨ .

العقول والألباب محفوفة بملائكة الله التي ما زال يمد بها الأمة الحنيفية المخلصة لبارئها ، فانهزم العدو بين أيديهــا ولم يقف لمقابلتها ثم أقبل العدو ثانياً فأرسل عليه من العذاب ما أهلــك النفوس والخيل ، وانصرف خاسئاً وهــو حسير ، وصدق الله وعده ونصر عبده . وهو الآن في البــلاء الشديد والتعكيس العظيم والبلاء الذي أحاط به . والإسلام في عز متزايد ، وخير مترافد ، فإن النبي ﷺ قد قال :

« إن الله يبعث لهذه الأمة في رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها » .

وهذا الدين في إقبال وتجديد ، وأنا ناصح للملك وأصحابه والله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة والإنجيل والفرقان .

ويعلم الملك أن وفد نجران كانوا نصارى كلهم فيهم الأسقف وغيره لما قدموا على النبي ﷺ ودعاهم إلى الله ورسوله وإلى الإسلام خاطبوه في أمر المسيح وناظروه فلما قامت عليهم الحجة جعلوا يراوغون ، فأمر الله نبيه أن يدعوهم إلى المباهلة كما قال :

﴿ فمن حاجَّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالَوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسَنا وأنفسَكم ثم نبتهــل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾(١) .

---

(١) سورة آل عمران ــ الآية ٦١ .

فلما ذكر النبي ﷺ ذلك استشوروا بينهم ، فقالـوا : «تعلمون أنه نبي وأنه ما باهل أحد نبياً فأفلح»، فأدوا إليه الجزية، ودخلوا في الذمة واستعفوا من المباهلة .

وكذلك بعث النبي ﷺ كتابه إلى قيصر الذي كان ملك النصارى بالشام والبحر إلى قسطنطينية وغيرها ، وكان ملكاً فاضلاً ، فلما قرأ كتابه وسأل عن علامته عرف أنه النبي الذي بشر به المسيح وهو الذي كان وعد الله به إبراهيم ابنه إسماعيل ، وجعل يدعو قومه النصارى إلى متابعته وأكرم كتابه وقبّلـه ووضعه على عينيه . وقال : « وددت أني أخلص إليه حتى أغسل عن قدميه ، ولولا ما أنا فيه من الملك لذهبت إليه » .

وأما النجاشي ملك الحبشة النصراني فإنه لما بلغه خبر النبي ﷺ من أصحابه الذين هاجروا إليه آمن به وصدقه ، وبعث إليه ابنه وأصحابه مهاجرين وصلى النبي ﷺ عليه لما مات ، ولما سمع سورة (كهيعص) بكى ، ولما أخبروه عمـا يقولون في المسيح قال : « والله ما يزيد عيسى على هذا مثل هذا العود » ، وقال : «إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة» .

وكانت سيرة النبي ﷺ أن من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله من النصارى صار من أمته ، له ما لهم وعليه ما عليهم ، وكان له أجران : أجر على إيمانه بالمسيح ، وأجر على إيمـانه

بمحمد . ومن لم يؤمن به من الأمم فإن الله أمر بقتاله كما قال في كتابه :

(قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون)(١) . . .

ثم المسيح صلوات الله عليه لم يأمر بجهاد ، لا سيما بجهاد الأمة الحنيفية ولا الحواريون بعده . فيا أيها الملك كيف تستحل سفك الدماء وسبي الحريم وأخذ الأموال بغير حجة من الله ورسله .

ثم أما يعلم الملك أنْ بديارنا من النصارى أهل الذمة والأمان مالايحصي عددهم إلا الله ، ومعاملتنا فيهم معروفة ، فكيف يعاملون أسرى المسلمين بهذه المعاملات التي لا يرضى بها ذو مروءة ولا ذو دين ؟ لست أقول عن الملك وأهل بيته ولا إخوته ، فإن « أبا العباس » شاكر للملك ولأهل بيته كثيراً ، معترف بما فعلوه معه من الخير ، وإنما أقول عن عموم الرعية ، أليس الأسرى في رعية الملك ؟! أليست عهود المسيح وسائر الأنبياء توصي بالبر والإحسان فأين ذلك ؟!.

ثم إنْ كثيراً منهم إنما أخذوا غدراً والغدر حرام في جميع الملل والشرائع والسياسات . فكيف تستحلون أن تستولوا على

---

(١) سورة التوبة ــ الآية ٢٩ .

من أخذ غدراً • أفتأمنون مع هذا أن يقابلكم المسلمون ببعض هذا وتكونون مغدورين والله ناصرهم ومعينهم • لا سيما في هذه الأوقات والأمة قد امتدت للجهاد ، واستعدت للجلاد ، ورغب الصالحون وأولياء الرحمن في طاعته • وقد تولى الثغور الساحلية أمراء ذووبأس شديد وقد ظهر بعض أثرهم وهم في ازدياد ••• وفي المسلمين الصالحون الذين لا يرد الله دعواتهم ، ولا يخيب طلباتهم ، الذين يغضب الرب لغضبهم ويرضى لرضاهم • وهؤلاء التتار مع كثرتهم وانتسابهم إلى المسلمين لما غضب المسلمون عليهم أحاط بهم من البلاء ما يعظم عن الوصف ، فكيف يحسن أيها الملك بقوم يجاورون المسلمين من أكثر الجهات أن يعاملوهم هذه المعاملة التي لا يرضاها عاقل لا مسلم ولا معاهد •

هذا وأنت تعلم أن المسلمين لا ذنب لهم أصلا ، بل هم المحمودون على ما فعلوه ، فإن الذي أطبقت العقلاء على الإقرار بفضله هو دينهم ، حتى الفلاسفة أجمعوا على أنه لم يطرق العالم دين أفضل من هذا الدين ، فقد قامت البراهين على وجوب متابعته •

ثم هذه البلاد ما زالت بأيديهم ، الساحل بل وقبرص أيضاً ما أخذت منهم إلا من أقل من ثلاثمائة سنة ، وقد وعدهم النبي ﷺ أنهم لا يزالون ظاهرين إلى يوم القيامة ، فما يؤمن الملك أن هؤلاء الأسرى المظلومين ببلدته ينتقم لهم رب العباد والبلاد

كما ينتقم لغيرهم ، وما يؤمنه أن تأخذ المسلمين حمية إسلامهم فينالوا منها ما نالوا من غيرها ، ونحن إذا رأينا من الملك وأصحابه مايصلح عاملناهم بالحسنى،وإلا فمن بُغي عليه لينصرنَّه الله.

وأنت تعلم أن ذلك من أيسر الأمور على المسلمين ، وأنا ما غرضي الساعة إلا مخاطبتكم بالتي هي أحسن ، والمعاونة على النظر في العلم واتباع الحق وفعل ما يجب ، فإنْ كان عند الملك من يثق بعقله ودينه فليبحث معه عن أصول العلم وحقائق الأديان ولا يرضى أن يكون من هؤلاء النصارى المقلدين الذين لا يسمعون ولا يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً .

وأصل ذلك أن تستعين بالله وتسأله الهداية وتقول : اللهم أرني الحق حقاً وأعنّي على اتباعه ، وأرني الباطل باطلاً وأعني على اجتنابه ، ولا تجعله مشتبهاً عليّ فأتبع الهوى فأضلّ . وقل: اللهم ربّ جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم .

والكتاب لا يحتمل البسط أكثر من هذا ، لكن أنا ما أريد للملك إلا ما ينفعه في الدنيا والآخرة وهما شيئان : أحدهما له خاصة ، وهو معرفته بالعلم والدين ، وانكشاف الحق وزوال الشبهة وعبادة الله كما أمر ، فهذا خير له من ملك الدنيا بحذافيرها ،

وهو الذي بعث به المسيح وعلّمه الحواريين • الثاني: له وللمسلمين، وهو مساعدته للأسرى الذين في بلاده ، وإحسانه إليهم ، وأمر رعيته بالإحسان إليهم والمعاونة لنا على خلاصهم ، فإن في الإساءة إليهم دركاً على الملك في دينه ودين الله تعالى ، ودركاً من جهة المسلمين ، وفي المعاونة على خلاصهم حسنة له في دينه ودين الله تعالى وعند المسلمين ، وكان المسيح أعظم الناس توصية بذلك •

ومن العجب كل العجب أن يأسر النصارى قوماً غدراً أو غير غدر ولم يقاتلوهم ، والمسيح يقول « من لطمك على خدك الأيمن فأدِر له خدك الأيسر ، ومن أخذ رداءك فأعطه قميصك » وكلما كثرت الأسرى عندكم كان أعظم لغضب الله وغضب عباده المسلمين فكيف يمكن السكوت على أسرى المسلمين في قبرص ، سيما وعامة هؤلاء الأسرى قوم فقراء وضعفاء ليس لهم من يسعى فيهم • وهذا « أبو العباس » مع أنه من عبّاد المسلمين وله عبادة وفقر وفيه مشيخة ومع هذا فما كاد يحصل له فداؤه إلا بالشدة • ودين الإسلام يأمرنا أن نعين الفقير والضعيف ، فالملك أحق أن يساعد على ذلك من وجوه كثيرة ، لا سيما والمسيح يوصي بذلك في الإنجيل ويأمر بالرحمة العامة والخير الشامل كالشمس والمطر • والملك وأصحابه إذا عاونونا على تخليص الأسرى والإحسان إليهم ، كان الحظ الأوفر لهم في ذلك في الدنيا والآخرة • أما في الآخرة فإن الله يثيب على ذلك ويأجر عليه وهذا مما لاريب فيه

عند العلماء المسيحيين الذين لا يتبعون الهوى • بل كل من اتقى الله وأنصف علم أنهم أسروا بغير حق ولا سيما من أخذ غدراً ، والله تعالى لم يأمر المسيح ولا أحداً من الحواريين ولا من اتبع المسيح على دينه ، لا بأسر أهل ملة إبراهيم ولا بقتلهم ، وكيف وعامة النصارى يقرون بأن محمداً رسول الأميين فكيف يجوز أن يقاتل أهل دين اتبعوا رسولهم •••

وما زال في النصارى من الملوك والقسيسين والرهبان والعامة من له مزية على غيره في المعرفة والدين ، فيعرف بعض الحق وينقاد لكثير منه ، ويعرف من قدر الإسلام وأهله ما يجهله غيره فيعاملهم معاملة تكون نافعة له في الدنيا والآخرة • ثم في فكاك الأسير وثواب العتق من كلام الأنبياء والصديقين ما هو معروف لمن طلبه ، فمهما عمل الملك معهم وجد ثمرته •••

ثم إن في بلادهم من النصارى أضعاف ما عندكم من المسلمين ، فإن فيهم من رؤوس النصارى من ليس في البحر مثلهم إلا قليل ، وأما أسراء المسلمين فليس فيهم من يحتاج إليه المسلمون ولا من ينتفعون به ، وإنما نسعى في تخليصهم لأجل الله تعالى رحمة لهم وتقرباً إليه يوم يجزي الله المصدقين ولا يضيع أجر المحسنين •

و « أبو العباس » حامل هذا الكتاب قد بث محاسن الملك وإخوته عندنا واستعطف قلوبنا إليه فلذلك كاتبت الملك لما بلغتني رغبته في الخير وميله إلى العلم والدين ، وأنا من نواب المسيح وسائر الأنبياء في مناصحة الملك وأصحابه ، وطلب الخير

لهم : فإن أمة محمد خير أمة أخرجت للناس ، يريدون للخلق خير الدنيا والآخرة ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويدعونهم إلى الله ، ويعينونهم على مصالح دينهم ودنياهم ، وإن كان الملك قد بلغه بعض الأخبار التي فيها طعن على بعضهم أو طعن على دينهم، فإما أن يكون الخبر كاذباً أو ما فهم التأويل وكيف صورة الحال. وإن كان صادقاً عن بعضهم بنوع من المعاصي والفواحش والظلم ، فهذا لا بد منه في كل أمة بل الذي يوجد في المسلمين من الشر أقل مما في غيرهم بكثير،والذي فيهم من الخير لا يوجد مثله في غيرهم.

والملك وكل عاقل يعرف أن أكثر النصارى خارجون عن وصايا المسيح والحواريين ورسائل « بولص » وغيره من القديسين . وإن كان أكثر ما معهم من النصرانية شرب الخمر وأكل الخنزير وتعظيم الصليب ، ونواميس مبتدعة ما أنزل الله بها من سلطان ، وأن بعضهم يستحل بعض ما حرمته الشريعة النصرانية . هذا فيما يقرون به . وأما مخالفتهم لما لا يقرون به فكلهم داخل في ذلك بل قد ثبت عندنا عن الصادق المصدوق رسول الله ﷺ أن المسيح عيسى بن مريم ينزل عندنا بالمنارة البيضاء في دمشق واضعاً يده على منكبي ملكين فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ولا يقبل من أحد إلا الإسلام ، ويقتل مسيح الضلالة الأعور الدجال الذي يتبعه اليهود ، ويُسلَّط المسلمون على اليهود حتى يقول الشجر والحجر يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله ، وينتقم الله للمسيح بن مريم مسيح الهدى من اليهود ما آذوه وكذبوه لما بعث إليهم ...

والذي أنصح به أن كل من أسلف إلى المسلمين خيراً ومال َ إليهم ، كانت عاقبته معهم حسنة بحسب ما فعله من الخير ، فإن الله يقول :

(فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومـن يعمل مثقال ذرة شراً يره)(١) .

والذي أختم به الكتاب ، الوصية بالشيخ « أبي العباس » وبغيره من الأسرى . والمساعدة لهم ، والرفق بمن عندهم من أهل القرآن والامتناع من تغيير دين واحد منهم . وسوف يرى الملك عاقبة ذلك كله ، ونحن نجزي الملك على ذلك بأضعاف ما في نفسه. والله يعلم أني قاصد للملك الخير لأن الله تعالى أمرنا بذلك ، وشرع لنا أن نريد الخير لكل أحد ونعطف على خلق الله، وندعوهم إلى الله وإلى دينه وندفع عنهم شياطين الإنس والجن .

والله المسؤول أن يعين الملك على مصلحته التي هي عند الله المصلحة . وأن يخير له من الأقوال ما هو خير له عند الله ويختم له بخاتمة خير . والحمد لله رب العالمين وصلواته عـلى أنبيائه المرسلين ولا سيما محمد خاتم النبيين والمرسلين ، والسلام عليهم أجمعين .

---

(١) سورة الزلزلة ــ الآيتان ٧ ، ٨ .

٩

يرجع كلام بعض الناس بسوء عن ابن تيمية وإيذائهم لـه وتأليب الحكام عليه ، إلى حسدهم له . وهذا من الأسباب التي جعلت ابن تيمية يتحدث عن الحسد كمرض مـن أمراض القلب . يقول رحمه الله تعالى :

قال الله تعالى عن المنافقين :

« في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضـاً » (١) وقـال تعالى : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » (٢) .

ومرض البدن خلاف صحته وصـلاحه ، وكذلك مرض القلب هو نوع فساد يحصل له إما بالشبهات أو الشهوات ، كما فسرّ مجاهد وقتادة قوله : (في قلوبهم مرض) : أي شك . وتارة يُفسَّر بشهوة الزنا ، كما فسر به قوله تعالى :

« فيطمع الذي في قلبه مرض » (٣) .

ومرض القلب : ألمٌ يحصل في القلب كالغيظ مـن عدو استولى عليك .

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٠ .
(٢) سورة الاسراء : الآية ٨٢ .
(٣) سورة الأحزاب : الآية ٣٢ .

قال تعالى : « ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم» (١) .

وكذلك الشك والجهل يؤلم القلب . قال النبي ﷺ :

« هلاّ سألوا إذا لم يعلموا ، فإنما شفاء العيّ السؤال » .

ويقال للعالم الذي أجاب بما يبيّن الحق : قد شفاني بالجواب .

والقلب يحتاج أن يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح ، كما يحتاج البدن أن يربى بالأغذية المصلحة له ، والصدقة لما كانت تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، صار القلب يزكو بها . قال تعالى :

« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » (٢) .

وكذلك ترك الفواحش يزكو بها القلب . قال تعالى :

« ولولا فضل الله عليكم ورحمته ، مازكى منكم أحد أبداً »(٣)
وقال : « وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة » (٤) .

وهي التوحيد والإيمان الذي به يزكو القلب .

---

(١) سورة التوبة : الآية ١٤ .

(٢) سورة التوبة : الآية ١٠٣ .

(٣) سورة النور : الآية ٢١ .

(٤) سورة فصلت : الآيتان ٦ ، ٧ .

ولهذا قال يحيى بن عمار العلوم خمسة : فعلم هو حياة الدنيا وهو علم التوحيد . وعلم هو غذاء الدين وهو علم التذكر بمعاني القرآن والحديث . وعلم هو دواء الدين وهو علم الفتوى إذا نزل بالعبد نازلة احتاج إلى من يشفيه منها . وعلم هو داء الدين وهو الكلام المحدث . وعلم هو هلاك الدين وهو علم السحر ونحوه .

وقال بعض السلف : « إن للحسنة لنوراً في القلب ، وقوة في البدن ، وضياء في الوجه ، وسعة في الرزق ، ومحبة في قلوب الخلق . وإن للسيئة لظلمة في القلب ، وسواداً في الوجه ، ووهناً في البدن ، ونقصاً في الرزق ، وبغضاً في قلوب الخلق » . وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته . قال تعالى :

« أَوَمَنْ كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس ، كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » (١) .

وضرب الله مثلاً لنور الايمان في قلب المؤمنين :

« الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار . نور على نور »(٢) .

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١٢٢ .

(٢) سورة النور : الآية ٣٥ .

وفي الدعاء المأثور : (اجعل القرآن ربيع قلوبنا ، ونور صدورنا) .

والربيع : هو المطر الذي ينزل من السماء فينبت به النبات ، والقلت الحي المنوّر ، فإنه لما فيه من النور يسمع ويبصر ويعقل. والقلب الميت فإنه لايسمع ولا يبصر وقالوا :

« قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ، وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب » (١) .

والقلب الحي يكون صاحبه فيه حياء يمنعه من القبائح ، والحياء مشتق من الحياة . ولهذا قال ﷺ :

« الحيـاء من الإيمان » .

والميت الذي لاحياة فيه يسمى وقحاً . والوقاحة : الصلابة وهو اليبس المخالف للرطوبة . فإذا كان وقحاً يابساً صليب الوجه، لم يكن في قلبه حياة توجب حياءه .

ومن أمراض القلوب (الحسد) : وهو البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود . وهو نوعان :

أحدهما : كراهية للنعمة عليه مطلقاً ، فهذا هو الحسد المذموم ، وإذا أبغض ذلك فإنه يتألم فيكون ذلك مرضاً في قلبه .

والنوع الثاني : أن يكره فضل ذلك الشخص عليه ، فيجب أن يكون مثله أو أفضل منه . فهذا حسد وهو الذي سموه

---

(١) سورة فصلت : الآية ٥ .

الغبطة ، وقد سماه النبي ﷺ حسداً في الحديث المتفق عليه من حديث ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهما أنه قال :

« لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها ، ورجل آتاه الله مالاً وسلطه على هلكته في الحق » • ولفظ ابن عمر : « رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار ، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفق منه في الحق آناء الليل والنهار » (١)

فهذا الحسد الذي نهى عنه النبي ﷺ إلا في موضعين هو الذي سماه أولئك الغبطة • وهو أن يحب مثل حال الغير ويكره أن يفضل عليه •

وأما من أحب أن ينعم الله عليه مع عدم التفاته إلى أحوال الناس ، فهذا ليس عنده من الحسد شيء • ولهـذا يبتلى غالب الناس بهذا القسم الثاني • وقد تسمى المنافسة كما يكره المستبقان كل منهما أن يسبقه الآخر • والتنافس ليس مذموماً مطلقاً ، بل هو محمود في الخير • قال تعالى :

« وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » (٢)•

فأمر المنافس أن ينافس في هذا النعيم ، لا ينافس في نعيم الدنيا الزائل ، وهذا موافق لحديث النبي ﷺ ، فإنه نهى عن الحسد إلا فيمن أُوتي العلم فهو يعمل به ويعلمه ، ومن أُوتي

---

(١) رواه البخاري •

(٢) سورة المطففين : الآية ٢٦ •

المال فهو ينفقه . ولم يذكر المجاهد لأن النفوس لاتحسد من هو في تعب عظيم ، وإن كان المجاهد في سبيل الله أفضل من الذي ينفق المال . وكذلك لم يذكر النبي ﷺ المصلي والصائم والحاج ؛ لأن هذه الأعمال لايحصل منها في العادة نفع الناس الذي يعظمون به الشخص ويسودّونه ، ما يحصل بالتعليم والإنفاق .

والحسد في الأصل : إنما يقع لما يحصل للغير من السؤدد والرياسة. ولهذا يوجد بين أهل العلم الذين لهم أتباع، من الحسد مالا يوجد فيمن ليس كذلك . وكذلك فيمن له أتباع بسبب إنفاق ماله ، فهذا ينفع الناس بقوت القلوب ، وهذا ينفعهم بقوت الأبدان .

ولهذا ضرب الله سبحانه مثلين : مثلاً بهذا ، ومثلاً بهذا فقال :

((ضرب الله مثلاً : عبداً مملوكاً لايقدر على شيء ، ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً . هل يستوون ؟! الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون . وضرب الله مثلاً : رجلين أحدهما أبكم لايقدر على شيء وهو كلٌ على مولاه أينما يوجهه لايأت بخير ، هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ؟!)) (١) .

والمثلان ضربهما الله سبحانه لنفسه المقدسة ولما يُعبد من دونه . فإن الأوثان لاتقدر لا على عمل ينفع ولا على كلام ينفع .

---

(١) سورة النحل : الآيتان ٧٥ ، ٧٦ .

ولهذا كان الناس يعظمون دار العباس ، فقد كان عبد الله يعلم الناس وأخوه يطعم الناس[1] ، فكانوا يُعظّمون على ذلك .
ورأى « معاوية » الناس يسألون « ابن عمر » عن المناسك وهو يفتيهم فقال : « هذا والله الشرف » أو نحو ذلك .

هذا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه نافس أبا بكر رضي الله عنه الإنفاق كما ثبت في الصحيح عن عمر بن الخطاب قال :

« أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق فوافق ذلك مالاً عندي فقلت : اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً . قال : فجئت بنصف مالي ، قال : فقال لي رسول الله ﷺ ما أبقيت لأهلك قلت : مثله . وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكل ما عنده ، فقال له رسول الله ﷺ : ما أبقيت لأهلك قال : أبقيت لهم الله ورسوله ، فقلت : لا أسابقك إلى شيء أبداً » .

فكان ما فعله عمر من المنافسة والغبطة المباحة ، لكن حال الصديق رضي الله عنه أفضل وهو أنه خال من المنافسة مطلقاً لاينظر إلى حال غيره .

وكذلك كان في الصحابة أبو عبيدة بن الجراح ونحوه كانوا سالمين من جميع هذه الأمور ، فكانوا أرفع درجة ممن عنده

---

(١) هو عبيد الله بن العباس وكان أصغر من أخيه عبد الله بسنة . استعمله علي على اليمن ، ومات رضي الله عنه بالمدينة سنة ٨٧ هـ وكان سخياً جواداً ينحر كل يوم جزوراً . انظر : الزركلي ، الأعلام ، جزء ٤ ، ص ٣٤٩ .

منافسة وغبطة ، وإن كان ذلك مباحاً . ولهذا استحق «أبو عبيدة» رضي الله عنه أن يكون أمين هذه الأمة ، فإن المؤتمن إذا لم يكن في نفسه مزاحمة على شيء مما اؤتمن عليه ، كان أحق بالأمانة ممن يخاف مزاحمته .

وفي الحديث الذي رواه الامام أحمد في مسنده عن أنس رضي الله عنه قال : « كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فقال : يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة ، قال فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوء ، قد علّق نعليه في يده الشمال فسلم . فلما كان الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله . فلما كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ مقالته ، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله ، فلما قام النبي ﷺ أتبعه عبد الله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنه فقال : إني لاحَيْتُ أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً ، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي الثلاث فعلت ، قال : نعم ، قال أنس رضي الله عنه : فكان عبد الله يحدث أنه بات عنده ثلاث ليال فلم يره يقوم من الليل شيئاً ، غير أنه إذا تعار انقلب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبر حتى يقوم إلى صلاة الفجر ، فقال عبد الله : غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً .

فلما فرغنا من الثلاث وكدت أن أحقر عمله قلت : يا عبد الله لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة ، ولكن سمعت رسول الله

ﷺ يقول ثلاث مرات يطلع عليكم رجل من أهل الجنة فطلعت أنت الثلاث مرات فأردت أن آوي إليك لأنظر ماعملك ، فأقتدي بذلك ، فلم أرك تعمل كثير عمل . فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ ؟ قال : ماهو إلا ما رأيت غير أنني لا أجد على أحـد من المسلمين في نفسي غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه . قال عبد الله : هذه التي بلغت بك وهي التي لا نطيق » .

وبهذا أثنى الله تعالى على الأنصار فقال :

« ولا يجدون في صدورهم حاجـة مما أوتـوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » (١) .

أي مما أوتي اخوانهم المهاجرون . قال المفسرون : لايجدون في صدورهم حاجة : أي حسداً وغيظاً مما أُوتي المهاجرون .

وكان بين الأوس والخزرج منافسة على الدين ، فكان هؤلاء إذا فعلوا ما يفضلون به عند الله ورسوله أحب الآخرون أن يفعلوا نظير ذلك .

وأما الحسد المذموم كله فقد قال تعالى في حق اليهود :

« ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق » (٢) .

ثم هذا الحسد ، إن عمل صاحبه بموجبه كان ظالماً معتدياً مستحقاً للعقوبة إلا أن يتوب . وكان المحسود مظلومـاً مأموراً

---

(١) سورة الحشر : الآية ٩ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٠٩ .

بالصبر والتقوى . فيصبر على أذى الحاسد ويعفو ويصفح عنه . وقد ابتلي « يوسف » بحسد إخوته له ، ثم إنهم ظلموه بتكلمهم في قتله وإلقائه في الجب وبيعه رقيقاً لمن ذهب به إلى بلاد الكفر فصار مملوكاً لقوم كفار ...

والمقصود أن الحسد مرض من أمراض النفس ، وهو مرض غالب فلا يخلص منه إلا قليل من الناس . ولهذا يقال : (ما خلا جسد من حسد . لكن اللئيم يبديه ، والكريم يخفيه . فمن وجد في نفسه حسداً لغيره فعليه أن يستعمل معه التقوى والصبر ، فيكره ذلك من نفسه . وكثير من الناس الذين عندهم دين لايعتدون على المحسود ، ولكنهم أيضاً لايقومون بما يجب من حقه ، بل إذا ذمه أحد لم يوافقوه على ذمه ولا يذكرون محامده . وكذلك لو مدحه أحد لسكتوا ، وهؤلاء مدينون في ترك المأمور في حقه ، مفرطون في ذلك ، وجزاؤهم أنهم يبخسون حقوقهم فلا ينصفون أيضاً في مواضع .

ولهذا قيل : أول ذنب عصي الله به ثلاثة : الحرص، والكِبْر، والحسد .. فالحرص من آدم ، والكبر من إبليس ، والحسد من قابيل حيث قتل هابيل .

وفي السنن عن النبي ﷺ :

« دبّ إليكم داء الأمم قبلكم : الحسد ، والبغضاء وهي الحالقة : لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين » .

فسماه داء ، كما سمى البخل داء في قوله :

« وأي داء أدوأ من البخل ؟! » .

فعلم أن هـــذا مرض • وقرن في الحديث الأول الحسد بالبغضاء ، لأن الحاسد يكره أولاً فضل الله على ذلك الغير ، ثم ينتقل إلى بغضه • والحسد يوجب البغي كما أخبر الله تعالى عمن قبلنا : حيث بغى بعضهم على بعض كما يبغي الحاسد على المحسود •

فالبخل والحسد مرض يوجب بغض النفس لما ينفعها ، بل وحبها لما يضرها • والقلب إنما خلق لأجل حب الله تعالى ، وهذه هي الفطرة التي فطر الله عليها عباده • والرسل صلى الله عليهم بعثوا لتقرير الفطرة وتكميلها لا لتغييرها وتحويلها • وإذا كان القلب محباً لله وحده مخلصاً له الدين لم يبتل بالأمراض •

فصحة القلب بالإيمان تحفظ ، من العلم النافع والعمـل الصالح • فليحرص المؤمن على كمال الفرائض من الصلوات الخمس باطنة وظاهرة فانها عمود الدين • وليكن هجيراه : لاحول ولا قوة إلا بالله فانها بها تحمل الأثقال وتكابد الأهـوال وينال رفيع الأحـوال •

والحمد لله رب العالمين •• وله الحمد والمنة على الإسلام والسنة •

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه أمهـات المؤمنين ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً [1] •

---

(١) مجموع الفتاوى ٩١/١٠ بتصرف .

١٠

اشتهر ابن تيمية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأنه يباشر ذلك أحياناً بيده . وكان له هيبة عند الحكام والعامة على السواء . . وهذه رسالة منه رحمه الله إلى السلطان يطلب منه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . قال رحمه الله :

بسم الله الرحمن الرحيم

من أحمد بن تيمية إلى سلطان المسلمين ، وولي أمر المؤمنين، نائب رسول الله ﷺ في أمته ، بإقامة فرض الدين وسننه ، أيده الله تأييداً يصلح به له وللمسلمين أمر الدنيا والآخرة ، ويقيم به جميع الأمور الباطنة والظاهرة ، حتى يدخل في قوله تعالى :

« الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » (١) وفي قوله ﷺ : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لاظل إلا ظله : إمام عادل . . . »

وقد استجاب الله الدعاء في السلطان ، فجعل فيه من الخير الذي شهدت به قلوب الأمة ما فضله به على غيره .

والله المسؤول أن يعينه ، فإنه أفقر خلق الله إلى معونة الله وتأييده . قال تعالى :

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم » (٢) .

---

(١) سورة الحج : الآية ٤١ .

(٢) سورة النور : الآية ٥٥ .

وصلاح أمر السلطان بتجريد المتابعة لكتاب الله وسنة رسوله ونبيه ، وحمل الناس على ذلك ، فإنه سبحانه جعل صلاح أهل التمكين في أربعة أشياء: إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر . فإذا أقام الصلاة في مواقيتها جماعة ــ هو وحاشيته وأهل طاعته ــ وأمر بذلك جميع الرعية ، وعاقب من تهاون في ذلك العقوبة التي شرعها الله ، فقد تم هذا الأصل . ثم إنه مضطر إلى الله تعالى ، فإذا ناجى ربه في السحر واستغاث به وقال : (ياحي ياقيوم ، لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث) . أعطاه الله من التمكين مالا يعلمه إلا الله .

ثم كل نفع وخير يوصله إلى الخلق ، هو من جنس الزكاة ، فمن أعظم العبادات سد الفاقات ، وقضاء الحاجات ، ونصر المظلوم وإغاثة الملهوف ، والأمر بالمعروف ، وهو الأمر بما أمر الله به ورسوله من العدل والإحسان ، وأمر نواب البلاد وولاة الأمور باتباع حكم الكتاب والسنة ، واجتنابهم حرمات الله ، والنهي عن المنكر وهو النهي عما نهى الله عنه ورسوله .

وإذا تقدم السلطان أيده الله بذلك في عامة بلاد الاسلام . كان فيه من صلاح الدنيا والآخرة له وللمسلمين مالايعلمه إلا الله . والله يوفقه لما يحبه ويرضاه .

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته[1] .

---

(١) مجموع الفتاوى : ٢٨/٢٤١ .

١١

وإذا كان الشيخ ابن تيمية رحمه الله قد قام بما أوجب الله عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقلبه ولسانه ويده . فما جوابه عن كيفية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأهميته وشروطه ... ؟ وفيما يلي بعض إشارات من إجاباته القيمة .

يقول رحمه الله تعالى :

الأمر بالمعروف من خصائص هذه الأمة :

(وصف الله سبحانه هذه الأمة بما وصف به نبيها قال :
« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (١) .

ولهذا قال أبو هريرة رضي‌الله عنه : (كنتم خير الناس للناس تأتون بهم في القيود والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة) .

وسائر الأمم لم يأمروا كلّ أحد بكل معروف ، ولا نهوا كلّ أحد عن كل منكر ، ولا جاهدوا على ذلك ، والذين جاهدوا كبني إسرائيل فعامة جهادهم كان لدفع عدوهم عن أرضهم ، لا لدعوة إلى الهدى والخير . ولهذا كان إجماع هذه الأمة حجة ، لأن الله تعالى أخبر أنهم يأمرون بكل معروف ، وينهون عن كلّ منكر ...) .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١١٠ .

المعروف والمنكر :

(ومن النهي عن المنكر إقامة الحدود ، ويجب على أولي الأمر ـ وهم علماء كل طائفة وأمراؤها ومشايخها ـ أن يقوموا على عامتهم ويأمروهم بالمعروف وينهوهم عن المنكر ، فيأمرونهم بشرائع الاسلام وهي الصلوات الخمس في مواقيتها والصدقات المشروعة والصوم المشروع ، وحج البيت الحرام . ومثل الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والايمان بالقدر خيره وشره.. ومثل اخلاص الدين لله ، والتوكل عليه ، والرجاء لرحمة الله والخشية من عذابه ، والصبر لحكم الله ، والتسليم لأمر الله ، ومثل صدق الحديث والوفاء بالعهود ، وأداء الأمانات إلى أهلها ....

وأما المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله فأعظمه : الشرك بالله ، وهو أن يدعو مع الله إلهاً آخر كالشمس والقمر ، أو ملك من الملائكة أو نبي من الأنبياء أو رجل من الصالحين .

ومن المنكر كل ما حرمه الله كقتل النفس بغير الحق وأكل أموال الناس بالباطل والربا والميسر وقطيعة الرحم وعقوق الوالدين ، والعبادات المبتدعة التي لم يشرعها الله ورسوله...).

أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وشروطه :

(وتحقيق ذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أوجب الأعمال وأفضلها وأحسنها .

وقد قال تعالى : « ليبلوكم أيكم أحسن عملاً » (١) . وهو كما قـال الفضيل بن عياض رحمه الله : « أخلصه وأصوبه » ، فإن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً . والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة .

ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في دعائه : « اللهم اجعـل عملي كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً » .

وإذا كان هذا حد كل عمل صالح ، فالآمر بالمعروف والناهي عن المنكر يجب أن يكون هكذا في حق نفسه . ولا يكون عمله صالحاً إن لم يكن بعلم وفقه ، وكما قال عمر بن عبد العزيز :

« من عبد الله بغير علم كان مـا يفسد أكثر مما يصلح » .

وكما في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه :

« العلم إمام العمل والعمل تابعه » .

فلا بد من العلم بالمعروف والمنكر والتمييز بينهما ، ولابد من العلم بحال المأمور والمنهي .

ولا بد في ذلك من الرفق ، كما قال النبي ﷺ :

« ما كان الرفق في شيء إلا زانه ، ولا كان العنف في شيء إلا شانه » (٢) .

---

(١) سورة الملك : الآية ٢ .

(٢) رواه مسلم .

ولا بد أيضاً أن يكون حليماً صبوراً على الأذى ، فإنه لا بد أن يحصل له أذى ، فإن لم يحلم ويصبر كان ما يفسد أكثر مما يصلح . كما قال لقمان لابنه :

« وأمر بالمعروف وانهَ عن المنكر واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور » (١) .

ولهذا أمر الله الرسل — وهم أئمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر — بالصبر ، كقوله لخاتم الرسل :

« يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر » (٢) .

فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالإنذار ، وختمها بالأمر بالصبر ، ونفس الإنذار أمر بالمعروف ونهي عن المنكر .

فلا بد من هذه الثلاثة : العلم ، والرفق ، والصبر . العلم قبل الأمر والنهي ، والرفق معه ، والصبر بعده . وهذا كما جاء في الأثر عن بعض السلف :

« لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيهاً فيما يأمر به ، فقيهاً فيما ينهى عنه ، رفيقاً فيما يأمر به ، رفيقاً فيما ينهى عنه ، حليماً فيما يأمر به ، حليماً فيما ينهى عنه » .

وليعلم أن الأمر بهذه الخصال في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما يوجب صعوبة على كثير من النفوس ، فيظن أنه

---

(١) سورة لقمان : الآية ١٧ .

(٢) سورة المدثر : الآيات ١—٧ .

بدون هذه الخصال أو أقل • فإن ترك الأمر الواجب معصية ، فالمنتقل مــن معصية الى معصية أكبر منهــا كالمستجير مــن الرمضاء بالنار •

ومن المعلوم بما أرانا الله من آياته في الآفاق وفي أنفسنا ؛ وبما شهد به في كتابه : أن المعاصي سبب المصائب ، وأن الطاعة سبب النعمة •

وقد أخبر سبحانه بما عاقب به أهل السيئات من الأمم كقوم نوح وعاد وثمود ، وقوم لوط ، وأصحاب مدين ، وقوم فرعون في الدنيا وأخبر بما يعاقبهم به في الآخرة • كما ذكر ذلك في سور : النازعات والمزمل والحاقة والقمر وغافر •• الخ •

وإذا كان الكفر والفسوق والعصيان سبب الشر والعدوان فقد يذنب الرجل أو الطائفة ويسكت آخرون عن الأمر والنهي، فيكون ذلك من ذنوبهم ، وينكر عليهم آخرون إنكاراً منهيــاً عنهفيكون ذلــك من ذنوبهم ، فيحصل التفرق والاختــلاف والشر ، وهذا من أعظم الفتن والشرور قديماً وحديثاً • ومن تدبر الفتن الواقعة رأى سببها ذلك ، ورأى أن ما وقع بين أمراء الأمة وعلمائها ومن دخل في ذلك من ملوكها ومشايخها ، ومــن تبعهم من العامة من الفتن : هذا أصلها [1] •)*

---

(١) أي إما عدم إنكار أو إنكار فيه أخطاء .

* مجموع الفتاوى ، لابن تيمية ، طبعة الرياض ، جزء ٢٨ ، ص ١٢١ ــ ١٧٠ ، بتصرف .

المحتوى

هذا الكتاب

عرف الناس في ابن تيميــة الجرأة الكبيرة والعقــل الواعي والحجة البيّنة ، فقد ألان الله له العلوم كما ألان لداود الحديد ..

ولكن ثمة « إشارات لطيفة » لابن تيمية ، تعكس صورة اخرى له : فهو أيضاً المتلطّف بالنصيحة ، صاحب الكلمة الرقيقة والنفس الشفافة والقلب الكبير المتسامح حتى مع الذين كادوا لــه ...

دار طيبــة
للنشــر والتوزيع
الرياض
ص ب ٧٦١٢